الكتاب الثالث

المذاهب الفنية فى الأندلس ومصر

الفصل الأول

الأندلس والمذاهب الفنية

فى أرض أندلس تلتذ نعماء ... ولا تفارق فيها القلب سراء
وكيف لاتبهج الأبصار رؤيتها ... وكل روض بها فى الوشى صنعاء
أنهارها فضة والمسك تربتها ... والخز روضتها والدر حصباء
(ابن سفر المريني)

١

الأندلس

من يرى مخطَّط بلاد الأندلس وكثرة ما يجرى فيها من أنهار يصبُّ بعضها فى المحيط الأطلسى وبعضها فى البحر المتوسط يحسُّ جمال هذه البلاد وجمال مناظرها وأوضاعها الطبيعية ، وقد أفاض مؤرخو العرب فى وصف مشاهدها كما أفاض الشعراء فى التغنى بمناظرها يقول ابن سعيد : « ميزان وصف الأندلس أنها جزيرة قد أحدقت بها البحار فأكثرت فيها الخصب والعمارة من كل جهة ، فمتى سافرت من مدينة إلى مدينة لا تكاد تنقطع من العمارة مابين قرى ومياه ومزارع ، ومما اختصَّت به أن قُراها فى نهاية من الجمال لتصنيع أهلها فى أوضاعها وتبييضها لئلا تنبو العيون عنها ، فهى كما قال بعض الشعراء فيها :

لاحتْ قُراها بين خضرة أيْكها ... كالدرِّ بين زبرجدٍ مكنونِ »[1]

ويقول ابن اليَسع إنه « لا يتزوَّد فيها أحد ماحيث سلك لكثرة أنهارها وعيونها ، وربما لقى المسافر فيها فى اليوم الواحد أربع مدائن ومن المعاقل والقرى ما لا يُحْصى ، وهى بطاح خُضْر وقصور بيض »[2].

وهذه البلاد نزلتها أمم مختلفة قبل دخول العرب فيها ، نزلها أول الأمر

(١) نفح الطيب طبع بولاق ١/٩٧ . (٢) نفح الطيب ١/٩٨ .

قبائل البَسْك والسَّلت والجلالقة من الشمال من بلاد الغال كما نزل بها كثير من البربر سكان إفريقية الشمالية . ثم نزل بها بعد ذلك الفينيقيون إذ استعمرت قرطاجنة بعض جهاتها . وكان ذلك قبل الميلاد بقرون ، وكان هذا الاستعمار سبباً فى أن تنبهت لها روما ، فلما وقعت بينها وبين قرطاجنة الحرب المعروفة رأيناها تعمد إلى هذه البلاد فتستولى عليها فى أوائل القرن الثالث الميلادى وتسميها إسبانيا اسمها المعروف . ومنذ ذلك الوقت أصبحت إسبانيا ولاية رومانية ، وكان لروما تأثير واسع فيها فرأيناها تتخذ اللاتينية لغة لها كما تتخذ المسيحية دينها بحيث لا يفد عليها العرب حتى تكون كثرة أهلها من المسيحيين .

وليست هذه الأحداث هى كل ما مرَّ بالأندلس قبل الفتح العربى ؛ فقد لقيتْ أحداثاً أخرى لعلها كانت أعنف من الأحداث السابقة ونقصد غارات «القَنْدال» عليها من الشمال وقد نزلوا بها وأسسوا على نهر الوادى الكبير مملكة سموها باسمهم (مملكة القندال) ومنها أُخذتْ كلمة «فندلس» التى نطق بها العرب (أندلس) وسموا بها هذه البلاد . وأغار عليها بعد القندال جماعات القوط فى القرن الخامس الميلادى .

وأخيراً يفتحها العرب فى أواخر القرن السابع للميلاد عام ٩٢ للهجرة ، ولم يكن الجيش الفاتح عربيًّا خالصاً بل كانت كثرته من البربر ، واستمر العرب والبربر جميعاً ينزلون الأندلس بعد الفتح ويستقرُّون بها بحيث استطاعوا أن يعرِّبوها وأن يجعلوها ولاية عربية فى أول الأمر ، ثم سرعان ما تصبح بعد ذهاب عبد الرحمن الداخل إليها قبل منتصف القرن الثانى للهجرة بقليل دولة عظيمة تنافس بعاصمتها قرطبة بغداد وما يتصل بها . على أن هذه الدولة الكبيرة لم يمض عليها نحو قرنين ونصف حتى رأيناها تنقسم إلى شُعب وفروع كثيرة، فتصبح كل مدينة كبيرة فيها إمارة مستقلة بنفسها لها ملك وللملك وزراؤه وشعراؤه فى هذا النظام المعروف باسم نظام (ملوك الطوائف) .

ولا تلبث هذه الإمارات أن تضعف تحت ضغط المسيحيين فى الشمال بسبب تنابذها وتخاصمها ، ويستغيث ملوكها بدولة المرابطين فى المغرب ،

فتمد ذراعها لمساعدتهم سنة ٤٨٤ للهجرة وسرعان ما تستولى عليهم . وتخلفها دولة الموحدين فتتحول الأندلس إليهم منذ سنة ٥٤١ . ولا تمضى فى القرن السابع الهجرى طويلا حتى تأخذ هذه الدولة فى الضعف ، بينما تأخذ المدن الأندلسية فى السقوط واحدة وراء الأخرى بيد المسيحيين . وينحاز المسلمون فى ركن ضيق بالجنوب هو مملكة غرناطة ، يشيدون فيه قصور الحمراء التى لا تزال تتألق به إلى اليوم ، ويدافعون عنها دفاعاً مجيداً نحو قرنين ونصف ، حتى إذا لم يبق فى كنانتهم سهم أسلموها مولّين وجوههم إلى بطاح المغرب بعد أن ظلوا هناك ثمانية قرون ، شادوا فيها صرح حضارة ومدنية باهرة .

٢

شخصية الأندلس

لعل أهم ما يميز الأندلس ترفها ونعيمها ووصْف شعرائها لطبيعتها وحسن مناظرها ، فقد ذهبوا يتغنون بمشاهدها ومواطن الجمال والفتنة فيها ، ويشيدون بها أيما إشادة كقول ابن سفر المرينى .

فى أرْضِ أنْدَلُسٍ تلتذّ نَعْماءُ ... ولا تفارقُ فيها القلبَ سَرّاءُ
وكيف لا تُبْهِجُ الأبصارَ رؤيتُها ... وكلُّ رَوْضٍ بها فى الوَشْىِ صَنْعاءُ
أنهارها فضّةٌ والمسْكُ تربتُها ... والخزُّ رَوْضَتُها والدُّرُّ حَصْباءُ

وتفنّن الأندلسيون تفنناً واسعاً فى هذا الجانب وبذلك تركوا مادة كبيرة فى شعر الطبيعة وساقهم ترفهم إلى وصف الخمر مع وصف الزهر ثم وصف مجالس الشراب وما ينطوى فيها من قيان . واستتبع ذلك الترف عندهم غناءً واسعاً كان من آثاره ظهور الموشحات والأزجال . وهذه هى الصورة العامة لشخصية الأندلس ، وهى شخصية رشّحَتْ لها البيئة والطبيعة .

أما السكان فقد كانوا من عناصر متباينة على نحو ماقدمنا ، وجعلهم هذا التباين لا يهدون ولا يستقرون ، بل دائماً ثورات وحروب داخلية . وأكبر الظن أن هذه الثورات والحروب هى التى جعلت الأندلس لا تستفيد كثيراً

من الحضارات القديمة التى اتصلت بها سواء الحضارة الفينيقية أو الحضارة الرومانية .

ونحن لا نبالغ إذا قلنا بأن شخصية الأندلس فى الأدب العربى ليست من القوة كما ينبغى ، وخاصة إذا أهملنا جانب البيئة ، فمما لا شك فيه أن هذا الجانب أثَّر أثراً واضحاً فى طبيعة الأدب الأندلسى شعره ونثره . غير أننا إذا تركنا هذا الجانب لم نكد نجد شيئاً آخر ، فقد كانت الكتلة الأندلسية تنساق نحو تقليد المشرق بكل ما فيه ، وحتى شعر الطبيعة عندهم لم يأتوا فيه بجديد سوى الكثرة ، أما بعد ذلك فصورته كله بما فيها من أفكار وأخيلة وأساليب هى الصورة المشرقية . ونحن لا نغلو إذا قلنا إن الأدب الأندلسى مدين فى نهضته للتراث العربى العام ، وهو تراث كان مشتركاً بين الأقاليم العربية كلها لا يختص به إقليم دون إقليم ، وكأنى بالأندلس لم تجد من الوقت ما تتعمق به الثقافة الرومانية التى تثقفتها قديماً على الرغم من اتخاذها اللاتينية ، فلما جاء العرب لم يجدوها تحرز تراثاً لاتينياً واسعاً تستطيع أن تحتفظ به لنفسها وتدمجه فى التراث العربى العام . وما أرانى أبعد إذا قلت إن الأندلس كانت تستمد نهضتها وحياتها من بغداد شأنها فى ذلك شأن الأقاليم الأخرى . وكان يمكن أن يقوم بينها وبين المشرق فوارق وحواجز لو أنها بدأت حياة عقلية مستقلة عن حياة المشرق تعتمد على ترجمة ما تعرفه من آثار لاتينية ، غير أنها لم تتجه هذه الوجهة ، بل غرقت إلى آذانها فى الثقافة العربية العامة التى نهضت بها بغداد ، وآية ذلك أنها لم تقم بها حركة ترجمة كالتى قامت فى بغداد فقد كانت تقرأ الثقافات الأجنبية فيما يأتيها من هناك .

وإن الإنسان ليخيَّل إليه أن الأندلس كانت تقلد المشرق فى جميع جوانب الحياة ، كما كان الشأن فى أميركا الحديثة حين هاجر أهلها من أوربا ، فإنهم ظلوا يستمدون من قارَّتهم القديمة ما شكَّلوا به حياتهم وعلمهم وفنهم . وهذا نفسه ما حدث بالأندلس ، فقد سمَّى العرب هناك بعض البلدان التى نزلوها بأسماء بلدان المشرق ، على نحو ما صنع الأوربيون حين نزلوا فى أميركا ، فكما سمى

هؤلاء نيوأورليانس ونيويورك ونحوهما ، سمى العرب فى الأندلس بلداناً قديمة باسم دمشق وقنسرين وحمص وفلسطين ، وأخذوا يعيشون على نمط يشبه نمط معيشة العرب فى المشرق ، واتصل ذلك بحياتهم فى جميع ضروبها ومظاهرها من سياسية واجتماعية وعقلية وفنية . أما حياتهم السياسية فقد حاولوا أن يجعلوها كالحياة السياسية فى بغداد إذ نرى الناصر يلقب نفسه بالخليفة[1] ، ويلقب أمراء الطوائف أنفسهم بالرشيد والمأمون والمتوكل والناصر والمنصور والمعتمد ، يقول ابن شرف القيروانى[2] :

مما يُزَهِّدُنى فى أرْضِ أندلُسٍ ... أسماءُ معتضدٍ فيها ومعتمدِ
ألقابُ مملكةٍ فى غير موضعها ... كالهر يحكى انتفاخًا صَوْلة الأسَدِ

أما الحياة الاجتماعية فقد عَمَّ التأثر فيها كل شىء ، إذ نرى الخلفاء يهتمون بالغناء والموسيقى على نحو ما رأينا فى بلاط هارون الرشيد والمأمون ، وبدأت هذه الموجة مع وفود زرياب عام ٢٠٦ للهجرة على الأندلس ، وكان قد تعلم فن الموسيقى والغناء على إسحق الموصلى ، ثم رحل إلى الأندلس . ويذكر له صاحب نفح الطيب تأثيراً واسعاً فى الحياة الاجتماعية لا يقف عند الغناء وما عُرف به من إنشاء مدرسة هناك ثم ما كان من إصلاحه للعود وزيادته وتراً على أوتاره يمثل النفس ، بل يمتد إلى جوانب أخرى ، فقد شَرَع للناس ضروب البِدْع البغدادى فى الزينة والطعام والشراب والاستقبال ، فهم يروون أنه سنَّ لهم أن تكون أوانى الشرب من زجاج وكانت من ذهب وفضة ، كما سن لهم ما يحسن أن يلبسوه ويأكلوه ، وكيف يتزين النساء ، وكيف يصفّفن شعورهن إلى غير ذلك من وسائل الحياة الاجتماعية والتأنق فيها[3] .

أما الحياة الفنية ، ونقصد حياة العمارة والبناء فيظهر أن الأندلس تأثرت صورة الزخرف العربى العام ، إذ يقولون إن زخرفة قَصْر الحمراء — المعروف

---

(١) أبو الفدا تحت عام ٣٥٠ هـ وانظر نفح الطيب للمقرى ١/٢١٢ .
(٢) نفح الطيب ١/١٠١ .
(٣) انظر ترجمته فى نفح الطيب (طبع بولاق) ٢/٧٤٩ وانظر أيضاً :
R. Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne, 1, p. 312.

بغرناطة، والذى يشغل مكانة خاصة ممتازة بين المخلدات الأندلسية — تتصل بتقاليد الفن الإسلامى العام، وبالأخص فن ما بين النهرين، أكثر منها بالتقاليد الإسبانية والإفريقية[1].

أما الحياة العقلية، فقد كان التأثر فيها بالمشرق بيناً واضحاً، وقد تتبَّع صاحب « نفح الطيب » فى ثبتين طويلين مَنْ رحلوا من الأندلس إلى المشرق للتزود بالعلم ومن رحلوا من المشرق إلى الأندلس طلباً للثروة أو للمجد العلمى والشهرة، وأقبل الأندلسيون على هؤلاء العلماء الوافدين عليهم يأخذون عنهم ويتعلمون، كما نرى فى حياة أبى على القالى وأماليه التى أملاها هناك. وكانت الأندلس بطيئة — على ما يظهر — فى تلقِّى الحياة العقلية من المشرق لكثرة ما كان فيها من فتن وخصومات.

والحق أن الأندلس أبطأت فى حركتها العقلية، وإنه لينبغى أن نحترس من هذا الفصل الذى عقده (صاعد) فى كتابه (طبقات الأمم) يستعرض فيه العلم فى الأندلس، ويذكر أسماء جماعة كانوا فى القرن الرابع كأبى عبيدة البلنسى، فإن هؤلاء لم يكونوا علماء بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، إنما كانوا مثقفين بالثقافة العربية العامة التى لم تكن تتجاوز عندهم شيئاً من الرياضيات والطبيعيات وبعض المعارف الطبية. وأسرعت الأندلس إلى الاهتمام بالثقافة الدينية، بل كادت أن لا تشغل نفسها بشىء سواها، يقول صاحب نفح الطيب: « وقراءة القرآن بالسبع، ورواية الحديث عندهم رفيعة، وللفقه رونق ووجاهة، ولا مذهب لهم إلا مذهب مالك ». ويقول: « كل العلوم لها عندهم حظ إلا الفلسفة والتنجيم، فإنه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطلقتْ عليه العامة اسم زنديق، وقيدت عليه أنفاسه فإن زل فى شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان، أو يقتله السلطان تقرُّباً للعامة، وكثيراً ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وُجدتْ، وبذلك تقرَّب المنصور

(١) الحضارة الإسلامية تأليف بارتولد (نشر دار المعارف) ص ٦١.

ابن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه[١]» . والمنصور بن أبي عامر هو أهم وزير للأمويين فى القرن الرابع إذ توفى عام٣٩٢ للهجرة ، ويقول ابن عذارى بصدده: « وكان المنصور أشد الناس فى التغير على من عنده شيء من الفلسفة والجدل فى الاعتقاد والتكلم فى شيء من قضايا النجوم وأدلتها والاستخفاف بشيء من أمور الشريعة وأحرَق ما كان فى خزائن الحكَم — الخليفة الأموى — من كتب الدهرية والفلاسفة بمحضر كبار العلماء »[٢].

وليس من شك فى أن ذلك كله كان سبباً فى بطء الحياة العقلية وتأخر نموها فى الأندلس ، ونحن نعرف أن أول فيلسوف أندلسى هو ابن باجه المتوفى عام٥٣٣ للهجرة فالأندلس لم تتعمق الفلسفة إلا فى عصر متأخر ، ولعلها من أجل ذلك اعتنقت مذهب مالك وفضلته على غيره من المذاهب ، لأنه لم يكن معقداً بفلسفة ، ولاحظ ذلك ابن خلدون ، وعلل له ببداوة أهل الأندلس وأنهم لم يكونوا يعانون الحضارة التى لأهل العراق فآثروا هذا المذهب لمناسبة البداوة بينهم وبين أهل الحجاز[٣]. ويمكن أن نعلل بنفس العلة لعدم اتساع موجة التفكير الإباحى الماجن عندهم على نحو ما نعرف فى المشرق كما أنه لم يظهر عندهم شاعر متفلسف متشائم كأبى العلاء .

وإذا تركنا الحياة العقلية فى الأندلس إلى الحياة الأدبية وجدنا ظاهرة التقليد للمشرق واضحة جلية إذ تُصاغ الكتب الأدبية عند الأندلسيين على شكل الكتب الأدبية عند المشارقة ، يُصاغ « العقد الفريد » على « شكل عيون الأخبار » ويراه الصاحب بن عباد فيقول هذه بضاعتنا رُدَّتْ إلينا ، ويصاغ كتاب « الحدائق » لابن فرج الجَيَّانى فى أهل زمانه على شكل كتاب « الزهرة » للأصبهانى[٤] ، ويصاغ كتاب « الذخيرة » لابن بَسَّام على شكل كتاب « اليتيمة »

---

(١) انظر نفح الطيب ١/١٠٤ .

(٢) البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب لابن عذارى (طبع ليدن) ١/٣١٤ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٣١٥ .

(٤) الذخيرة لابن بسام (طبع جامعة القاهرة) ١/٢ .

للثعالبي [١]. والحق أن الحركة الأدبية فى الأندلس صيغتْ صياغة على شكل الحركة الأدبية فى المشرق ، وقد نعجب من ذلك الآن ، ولكن من يتعمق دراسة الأندلس يعرف سرعة الاتصال بينها وبين المشرق، فعلماؤها وأدباؤها يرحلون إليه كما يرحل إليها علماؤه وأدباؤه . ومن لم يذهب من المشرق إلى الأندلس أرسل إليه بآثاره ، أو نقلها إليه هؤلاء الأندلسيون الذين يجوبون الأقطار الشرقية للبحث عن المنابع الهامة للأدب والثقافة ، ولعل من الغريب أن يعرف القارئ أن كتابى (البيان والتبيين) و(التربيع والتدوير) نُقلا فى حياة الجاحظ إلى الأندلس[٢] وأرسل أبو الفرج الأصبهانى لعبد الرحمن الناصر نسخة من كتابه (الأغانى) كما نُقل ديوان المتنبي فى حياته إلى الأندلس نقله ابن الأشجّ الذى قابل المتنبى فى الفسطاط عام ٣٤٦ للهجرة ، وبذلك استطاع ابن هانئ المعاصر له أن يتأثره تأثراً واضحاً . ويذكر صاحب الذخيرة أن ابن شهيد كان يستعير معانى أبى العلاء فى بعض أشعاره[٣] فإذا عرفنا أن ابن شهيد توفى عام ٤٢٦ للهجرة بينما توفى أبو العلاء عام ٤٤٩ عرفنا إلى أى حد كانت سرعة الاتصال بين الأندلس والمشرق .

ومن يقرأ فى الذخيرة ويتابع الأدباء والشعراء فى تقليدهم لأدباء المشرق وشعرائه يخيَّل إليه أن القوم قد حَبسوا أنفسهم داخل الإطار العام للأدب العربى ، فهم يضعون المشرق نصب أعينهم يتخذون منه مُثُلَهُم الأدبية العليا ، وقد كتب ابن شهيد رسالة « التوابع والزوابع » ، وذكر فيها أسماء شياطين الشعراء الذين أجازوه ، وكلهم من شعراء المشرق الذين نعرفهم ، أمثال أبى نواس وأبى تمام والبحترى والمتنبي [٤] ، وكان الأندلسيون حتى عصر ابن خلدون لا يزالون يقولون : « إن أصول علم الأدب وأركانه أربعة دواوين ، وهى أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين

---

(١) انظر مقدمة كتاب الذخيرة .
(٢) معجم الأدباء ٦/٧٤ .
(٣) الذخيرة ١/٢٨٧ .
(٤) انظر رسالة التوابع والزوابع فى الذخيرة ١/٢١٠ .

للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبى على القالى البغدادى »[١] ، وليس فى هذه الأصول والأركان شىء لأهل الأندلس . وما أظننا نسرف إذا قلنا بعد ذلك إن الأندلسيين كانوا يعيشون على تقليد أهل المشرق ، ولعل ذلك ما جعل صاحب الذخيرة يقول فيهم : « إن أهل هذا الأفق أبوا إلا متابعة أهل المشرق يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة ، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب ، أو ظن بأقصى الشام والعراق ذباب ، لجشوا على هذا صنماً ، وتلوا ذلك كتاباً محكماً [٢] » .

٣

الشعر فى الأندلس

رأينا الأندلس تؤسس حياتها العقلية والأدبية على أسس مشرقية ، وجعلها ذلك تعيش فى فنها وشعرها داخل الإطار المشرقى العام ، إذ كانت الفكرة الأساسية عند من يريد أن يكتب شعراً أن يكون شعره على نمط الشعر عند المشارقة من القدماء أو العباسيين . ومعنى ذلك أن الشاعر الأندلسى لم يحاول أن يُخضع الشعر العربى لشخصيته ، بل رأيناه هو يخضع له ، فهو يخضع لموضوعاته المعروفة فى المشرق كما يخضع لأفكاره ومعانيه وأخيلته وأساليبه . ولعل من المهم أن نعرف أنه مرت على الأندلس فترة طويلة قبل أن تجد شاعراً ممتازاً تستطيع أن تلتقى به شعراء المشرق ، وأكبر الظن أن ذلك يرجع إلى كثرة ما كان فيها من فتن وثورات وخصومات فكأنها لم تهدأ لنفسها حتى تستطيع أن تنتج شاعراً ممتازاً إذ كانت دائماً فى حروب داخلية يثيرها العرب وما بين المضرية واليمنية عندهم من خصومات قديمة ، ثم يثيرها ما كان يقوم بين العرب وبين البربر من جهة ، ثم بينهم وبين المسيحيين الشماليين من جهة أخرى .

ومهما يكن فقد كانت مُثُل الأندلسيين فى الشعر هى نفس مثل المشارقة ، ومع ذلك فنحن لا نكاد نعرف للأندلس شاعراً ممتازاً فى القرنين الثانى والثالث

---

(١) المقدمة ص ٤٠٨ .

(٢) الذخيرة ١/٢ .

للهجرة سوى يحيى بن الحكم الغزال شاعر الأمير عبد الرحمن الثانى (٢٠٦ — ٢٣٨ هـ) وقد سَفَرَ بينه وبين أمراء أوربا وقدم فى بعض هذه السفارات على أحد أمراء النورمان فى جزائر الدانمارك، وأثبت ابن دِحْيَة بعض أشعاره فى «المطرب» وهى أشعار جيِّدة . وأهمُّ منه ابن عبد ربه صاحب كتاب « العقد الفريد » المتوفى عام ٣٢٨ للهجرة، فقد تعلق بصنع الشعر وترك فيه ديواناً لم يصلنا، غير أن ما نقله ياقوت وابن خلكان عنه يدل على أنه متكلِّف فى شعره كقوله :

يا ذا الذى خَطَّ العِذارُ بوجهه ... خَطَّين هاجا لوعةً وبلابلا
ما صح عندى أنَّ لحظك صارمٌ ... حتى لبستَ بعارضيْكَ حمائلا

وواضح ما فى هذا التصوير من تكلف إذ وصَف اللحظ بالسيف الصارم، وكان التشبيه حتى الآن طبيعيًّا ، ولكنه أراد أن يُبْعِد فزاد تلك البقية التى تجعل العِذارين حمائل للسيف، أرأيت إلى هذا البعد فى الخيال وهذا التكلف ؟ ومع ذلك فقد كان لابن عبد ربه قطعٌ أخرى لا يبدو فيها هذا التكلف الشديد كقوله :

وبدتْ لى فأشرق الصبحُ منها ... بين تلك الجيوبِ والأطواقِ
يا سقيمَ الجفون من غير سُقْمٍ ... بين عينيك مصرعُ العشاقِ
إنَّ يوم الفراق أفظعُ يومٍ ... ليتنى متُّ قبل يوم الفراقِ

وله قطع أخرى أكثر من هذه رقة وسهولة . ولعل من المهم أن نعرف أن الشعر الأندلسى يفقد الوحدة منذ ابن عبد ربه إذ نجد الشاعر الواحد يتكلف فى قطعة ويخفف من تكلفه فى أخرى ، فتحار أهو من مذهب الصانعين أم هو من مذهب المتصنعين أم هو من مذهب المصنِّعين ، فقطعة فيها صنعة وثانية فيها تصنع وثالثة فيها تصنيع على غير نظام أو نسق معين . ولذلك كان الباحث يضطرب فى الحكم على الشاعر الأندلسى ، فبينما يحكم عليه بأنه من ذوق الصانعين إذا به يجد عنده نموذجاً من ذوق المصنعين أو المتصنعين ، وكذلك الأمر إن هو حكم عليه بأحد الذوقين الآخرين . وقد يكون من أسباب ذلك أن هذه المذاهب كانت تتفارق فى المشرق مفارق واضحة، إذ توجد مع التطور فى الحياة والحضارة ، فالصانعون يسبقون المصنعين ويأتى

المتصنعون من ورائهم ، أما فى الأندلس فإنه لا يوجد هناك تطور بين هذه المذاهب ، إذ بدأت نهضة الشعر هناك متأخرة عن نشوء هذه المذاهب فى المشرق ، فكان الشعراء يحاكونها جميعاً فى غير نظام ولا نسق واضح. ونحن نقف قليلا عند شاعرين مهمين ظهرا بعد ابن عبد ربه فى القرن الرابع ، وهما ابن هانئ الأندلسى وابن دَرَّاج القَسْطَلِىّ .

ابن هانئ الأندلسى

هو أبو القاسم محمد بن هانئ[1] وهو عربى الأصل إذ يُنْسَبُ إلى المهلب بن أبى صُفْرة الأزدى الذى اشتهر بحروبه وانتصاراته على الخوارج وفى خراسان لعصر بنى أمية . ويسمى ابن هانئ الأندلسى تمييزاً له من ابن هانئ الحكمى المكنى بأبى نواس الشاعر المعروف . وقد ولد بإشبيلية عام ٣١٦ للهجرة ، وكان أبوه قد هاجر إليها من المهدية فى شمالى إفريقيا وعُنِى بابنه وبتربيته ، ولم يلبث أن تدفق الشعر على لسانه ، فلمع اسمه ، وقرَّبه منه حاكم بلدته . غير أنه أكثر من الانهماك فى الملاذ ، وأظهر استهتاراً وزندقة ، ونقم عليه أهل إشبيلية ذلك وامتدت نقمتهم إلى الحاكم الذى يرعاه ، فنصحه أن يبتعد عنهم مدة ، فولىَّ وجهه نحو المغرب وعمره سبعة وعشرون عاما . وكانت جيوش الفاطميين تتوغل فيها بقيادة جوهر الصقلى ، فألمَّ به وقدَّم إليه إحدى مدائحه ، لكنه لم يُشبه الثواب الذى كان ينتظره ، فتركه إلى جعفر ويحيى ابنى على ، وكانا واليين على الزاب فى المغرب الأوسط للمعز الفاطمى ، فأجزلا له فى العطاء . وسمع به المعز فطلبه منهما ، وقدم عليه ابن هانئ ، فبالغ فى الإنعام عليه ، حتى تحول إليه بقلبه ، وآمن بعقيدته الشيعية وكل أصولها المذهبية. وخرج مع المعز حين فتح مصر ينشده مدائحه ، لكنه عاد ليحضر أولاده وأهله . ووصل بهم إلى برقة ، وُنُفِّجأ بقتله فيها سنة ٣٦٢ وربما دبَّر هذا القتل بعض خصوم المعز هناك حتى لا ينعم بهذه التحفة النادرة .

---

(١) انظر فى ترجمته وفيات الأعيان لابن خلكان ٢/ ٤ ومطمح الأنفس للفتح بن خاقان (طبع الجوائب) ص ٧٤ والتكملة لابن الأبارص ١٠٣ والإحاطة للسان الدين بن الخطيب ٢/ ٢١٢ والمغرب (القسم الأندلسى - طبع دار المعارف) ٢/ ٩٧ ومعجم الأدباء (طبعة القاهرة) ١٩/ ٩٢.

ومن يرجع إلى ديوانه يجد أكثره فى المديح ، ومعانيه فيه هى نفس المعانى التى نلقاها فى الشعر العربى عند العباسيين ومَنْ قبلهم، وإن كنا نلاحظ فى مديحه للمعز وقوفاً طويلا عند صفاته الإمامية ، وشعره فى هذه الناحية مرجع مهم لمن يبحثون فى العقيدة الفاطمية وكل ما كان يؤمن به دُعاتهم من صفات عُلْوية فى الإمام ، إذ كانوا يؤمنون بأنه معصوم وأنه عالم بالظاهر والباطن وأنه يكون شفيعاً لأوليائه يوم القيامة ، ولا يزالون به حتى يضعوه فوق البشر ويُضْفون عليه من القدسية والجلال ما يجعله روحاً من الله، بل ما يجعله سبب الوجود وعلة الحياة . وتكثر هذه المعانى وما يتصل بها فى شعر ابن هانئ كثرة مفرطة كقوله [١] :

وما كُنْهُ هذا النور نورُ جبينه ... ولكنَّ نور الله فيه مشارِكُ

وقوله [٢] :

ولله علمٌ ليس يُحْجَبُ دونكم ... ولكنه عن سائر الناس محجوبُ

وقوله [٣] :

مؤيدٌ باختيار الله يصْحبهُ ... وليس فيما أراه اللهُ من خَلَل
وقد شهدتُ له بالمعجزات كما ... شهدتُ لله بالتوحيد والأزل

وقوله [٤] :

أرى مدحه كالمدح لله إنه ... قنوتٌ وتَسْبيحٌ يُحَطُّ به الوزْرُ

وقوله [٥] :

هو عِلَّةُ الدنيا ومَنْ خُلقت له ... ولعلَّةٍ ما كانتِ الأشياءُ

وقوله [٦] :

ما شئتَ لا ما شاءتِ الأقدارُ ... فاحكمْ فأنتَ الواحدُ القَهَّارُ

وقوله حين نزل المعز بمدينة رقادة بجوار القيروان [٧] :

---

(١) الديوان (طبعة زاهد على) ص ٥١١
(٢) الديوان ص ٦٦ .
(٣) الديوان ص ٩٥
(٤) الديوان ص ٣٤٢ .
(٥) الديوان ص ١٥ .
(٦) الديوان ص ٣٦٥ .
(٧) الديوان ص ٨١٧ .

حلّ برقـــادةَ المسيحُ حلّ بها آدمٌ ونوحُ
حلّ بها اللهُ ذو المعالى وكلُّ شيءٍ سواه ريحُ

فالمعز فى رأيه تحلُّ فيه أرواح الأنبياء ، بل يحل فيه الله ، تعالى عن ذلك علوًّا كبيراً . ومر بنا شيء من هذا المبالغات عند المتنبي ، وكان شيعيًّا غير أن ابن هانئ تجاوز فيها كل حد مردّداً عقيدة الشيعة الإسماعيلية فى إمامهم ، وكان هو نفسه من تابعيه ومريديه ، ولعل هذا نفسه ما جعل المعز يأسف ويتحسر عليه حين بلغته وفاته.

ولسنا أول من يربط بينه وبين المتنبي ، فقد كان الأندلسيون أنفسهم يسمونه متنبي المغرب ، ومن يقرأ ديوانه يجده يحتذى على مثاله ، فى كثير من أشعاره . غير أنه لا يستوى منه وحده فقد كان يعجب أيضاً بمذهب المصنّعين ، وفسح فى شعره لأخيلة وصور كثيرة كقوله فى فاتحة إحدى مدائحه للمعز[1] :

فُتِقَتْ لكم رِيحُ الجلاد بعَنْبَرِ وأمدّكم فلَقُ الصباح المُسْفِرِ[2]
وجنيتمُ ثمـــر الوقائع يانعًا بالنَّصْر من ورق الحديد الأخضرِ[3]

فقد تصور الجلاد وعراك الأبطال ريحاً عاصفاً يفوح منه العنبر والطيب ، وهو يهبُّ فى الصباح المشرق . وبالغ فى التصور والتكلف ما شاء حتى تخيل السيوف شجراً له ورق وثمر ، وهم يجنون منه النصر والظفر . فتصوير المصنعين عنده ينتهى إلى هذه المبالغات الغريبة. ومن الحق أنه كان يُحْسن فى هذا الباب ، ولعل ذلك ما يجعل قصائده فى وصف أساطيل المعز تروع قارئها لما يجد عنده من تفنن فى التصوير ، وهو لا يقف بهذا التفنن عند المديح ووصف الأساطيل بل يذيعه فى ضروب شعره الأخرى من غزل وغير غزل ، كمقطوعته المشهورة[4] :

فتكاتُ طَرْفك أم سيوفُ أبيكِ وكئوسُ خمرٍ أم مَراشِفُ فيكِ

فهو إذن يخلط فى شعره بين مذهبى التصنيع والتصنع ، ومما لا شك فيه أنه كان يعجب بالمتنبي وأنه كان يستوحيه فى كثير من قصائده ومعانيه ،

---

(١) الديوان ص ٣٢١ .
(٢) فتقت : فاحت ، الجلاد : العراك .
(٣) يانعاً : ناضجاً .
(٤) الديوان ص ٥٣١ .

ونراه ينفذ مثله فى الرثاء إلى ذم الدهر والشكوى من الحياة كقوله فى رثاء غلام[١] :

وهبَ الدهر نفيسا فاستردْ ... ربما جاد بخيلٌ فحسَدْ
كلما أعطى فوقَّ حاجةً ... بيدٍ شيئًا تلقَّاه بيد
خاب من يرجو زمانًا دائمًا ... تُعْرَفُ البأساء منه والنَّكَدْ
فإذا ما كدَّر العيش نَمَا ... وإذا ما طيَّب الزاد نفَدْ

وعلى هذا النحو كان يقتدى بالمتنبي تارة ، ويقتدى بالمصنعين تارة أخرى ، فهو لا يثبت عند مذهب بعينه . ونستطيع أن نسلك فى اقتدائه بالمتنبي عنايته فى شعره بالغريب والقوافى الشاذة فهو ينظم على الثاء والخاء ونحوهما من الحروف الصعبة حتى يثبت تفوقه . وإذا كنا لاحظنا فى غير هذا الموضع على المتصنعين أنهم كانوا إذا عمدوا إلى التصنيع لفّوا ولفقوا فإننا نلاحظ ذلك نفسه عند ابن هانئ ، إذ كان يأتى المعانى والأخيلة من بعيد ، وكان يستر ذلك بما تعوده من ضخامة التعبير . روى الرواة أن أبا العلاء كان إذا سمع شعره يقول : ما أشبهه إلا برَحَى تطحن قروناً لأجل القعقعة التى فى ألفاظه ، ويزعم أنه لا طائل تحت تلك الألفاظ[٢] . وما هذه القعقعة وما يندرج فيها من عدم الطائل والفائدة إلا ما نشير إليه من طنطنته بالألفاظ والأساليب الضخمة ، فإذا ما بحثنا هذه الأساليب لم نجد شيئاً غير التلفيق واللف وإتيان المعنى من بعيد ، ولعل ذلك ما جعل ابن رشيق يقول عنه : « وفرقةٌ أصحاب جلبة وقعقعة بلا طائل معنى إلا القليل النادر كأبى القاسم بن هانئ ومن جرى مجراه فإنه يقول أول مذهبته :

أصاختْ فقالتْ وقْعُ أجْرَدَ شَيْظَمِ ... وشامتْ ، فقالت : لَمْعُ أبْيَضَ مخْذَمِ[٣]
وما ذُعرتْ إلا بجرْسِ حُلِيِّها ... ولا رَمقَتْ إلا بُرَّى فى مُخَدَّمِ[٤]

وليس تحت هذا كله إلا الفساد وخلاف المراد ، ما الذى يفيدنا أن تكون

---

(١) الديوان ص ٢٤٥ .
(٢) وفيات الأعيان ٢/٥ .
(٣) أصاخت : أرهفت السمع . الأجرد من صفات الخيل الكريمة . الشيظم : الطويل القوى من الخيل . شام البرق : نظر إليه . والأبيض : السيف . والمخذم : القاطع .
(٤) جرس : صوت . رمق الشىء : لحظه لحظا خفيفا . برى : جمع برة ، وهى هنا الخلخال . المخدم : موضع الخلخال .

هذه المنسوب بها لبست حليّها فتوهمته بعد الإصاخة والرمق وقع فرس أو لمع سيف ، غير أنها مغزوّة فى دارها ، أو جاهلة بما حملته من زينتها ، ولم يخف عنا مراده أنها كانت ترقبه ، فما هذا كله ؟ [1] » .

ونحن نرى من هذا النص أن ابن رشيق يلاحظ على ابن هانئ شيئين : الشيء الأول أنه قد تعلق بمعنى لا طرافة فيه ، والشيء الثانى أنه لفّ طويلا حول تعبيره عن فكرته قبل أن يؤديها ، وكأنى به تأثر قول المتنبي :

يَرَوْنَ من الذُّعْرِ صوتَ الرياحِ صهيلَ الجيادِ وخَفْقَ البُنُودِ

فالمتنبي يقول إن أعداء الممدوح فَرُّوا منه ، وهم يظنون فى أثناء فرارهم أن صوت الرياح صهيل الجياد وخفق البنود لشدة فزعهم وخوفهم ، فجاء ابن هانئ ونقل هذا المعنى من وصف الحرب إلى شعر الغزل ودار حوله هذا الدوران الطويل ، فإذا صاحبته تتوهم لخوفها أن صوت حليّها وقع أقدام فرسه ، وأن لون خلخالها لون سيفه ، أرأيت إلى هذا التكلف فى التعبير ؟ إنه لم يجلبه فن ولا زينة إنما جلبه تصنع ابن هانئ وتلفيقه للصور والأفكار العباسية وما يشفعه بها من نقل ولَفٍّ ودوران .

على أننا نعود فنلاحظ مرة أخرى أن هذا الشاعر المتصنّع كان يستخدم أدوات التصنيع وخاصة أدوات التصوير ، غير أنها تحولت فى بعض جوانبها عنده إلى ضروب جديدة من التكلف والتصنع ، وهذا هو معنى ما نقوله من أن الشاعر الأندلسى لا يستطيع أن يعيش فى منهج عباسى واحد . هو لا يجدّد ولا يحدث مذهباً جديداً . وهو حين يعيش فى منهج عباسى نراه لا يستمر فيه ، بل يخلط بينه وبين غيره من المناهج ، وهذا ابن هانئ أقرب الأندلسيين إلى ذوق التصنع نراه يجمع فى شعره بين أدوات التصنيع والتصنع جميعاً ، واقرأ هذه القطعة التى امتلأت بالصور والتشبيهات :

كأنَّ رقيبَ النَّجْمِ أجْدَلُ مَرْقَبٍ يُقَلِّبُ تَحْتَ الليلِ فى ريشه طَرْفَا [2]

---

(١) العمدة لابن رشيق ١ / ٨٠ وما بعدها .

(٢) رقيب النجم : الذى يغيب بطا مثل الإكليل فإنه يغيب بطلوع الثريا . الأجدل : الصقر . المرقب : الموضع العالى .

كأنَّ بنى نَعْشٍ ونَعْشًا مَطَافِلٌ ... بِوجْرَةَ قد أضللْنَ فى مَهمه خِشْفا[1]

كأنَّ سُهَيْلاً فى مطالع أُفْقِه ... مفارقُ إلْفٍ لم يجد بعده إلْفَا

كأنَّ سُهاها عاشقٌ بين عُوَّدٍ ... فآونةً يبدو ، وآونةً يَخفى[2]

كأنَّ مُعَلَّى قُطبِها فارسٌ لَهُ ... لواءان مركوزان قد كَرِه الزَّحْفا

كأن قُدَامَى النَّسْرِ ، والنَّسْرُ واقعٌ ... قُصِصْنَ فلم تَسْمُ الخوافى به ضَعْفَا[3]

ومضى فى القصيدة على هذا النحو يصنّع لهذه التشبيهات التى يحس الإنسان إزاءها أنها جاءت لتعبّر عن تلفيق لا لتعبر عن شعور وجمال ، فكل ما هناك أن الشاعر يريد أن يثبت مهارته باستخدام « كأن » وما يتبعها من صور وأخيلة . وعلى هذا النمط كان الشاعر الأندلسى يجمع فى شعره بين صور التصنيع والتصنع جميعاً .

ابن دَرَّاج القَسْطَلِىّ

وهذا شاعر آخر يُقْرَنُ بالمتنبى ، عاش فى القرن الرابع وصدر الخامس ، وكان كاتب المنصور بن أبى عامر وزير الأمويين ، كما كان شاعره[4] ، وقد ذكره الثعالبى فى يتيمته ، وقال فى حقّه : « كان بصُقْع الأندلس كالمتنبى بصقع الشام ، وهو أحد الشعراء الفحول ، وكان يجيد ما ينظم » . ويقول ابن بسّام عنه : إنه « كان لسان الجزيرة شاعراً وأولاحين عَدّ معاصريه من شعرائها المشهورة ،

---

(١) بنو نعش ونعش : نجوم سبعة . مطافل : جمع مطفل ، وهى الظبية ذات الأطفال . وجرة : موضع ببادية نجد ، المهمه : الفلاة . الخشف : ولد الظبية .

(٢) السها : كوكب خفى من بنات نعش . العود : جمع عائد وهو زائر المريض .

(٣) فى الكواكب نسران : نسر واقع ونسر طائر . القدامى : الريش الطويل فى مقدم الجناح ، الخوافى : صغار الريش مما ينبت تحت القوادم .

(٤) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان لابن خلكان ١ / ٤٢ ويتيمة الدهر للثعالبى ١ / ٤٣٨ والمجلد الأول من الذخيرة ص ٤٣ وبغية الملتمس للضبى ص ١٤٧ والصلة لابن بشكوال ص ٤٢ والمغرب لابن سعيد (طبع دار المعارف) ٢ / ٦٠ . وقد طبع ديوانه فى دمشق بتحقيق محمود على مكى .

وآخر حاملي لوائها ، وبهجة أرضها وسمائها وأسوة كتّابها وشعرائها ، له عُقِد فخرها المحمول وسُهم ، وبه بُدئ ذكرها الجميل وخُتم ، حلّ اسمه من الأمانى محل الأنس ، وسار نظمه ونثره فى الأقاصى والأدانى مسير الشمس ، وأحمد من تضاءلت الآفاقُ عن جلالة قدره ...»[1] . وقال أبو حيان عنه : « أبو عمر بن دراج القسطلى سبّاق حَلْبَة الشعراء العامريين وخاتمة محسنى أهل الأندلس أجمعين[2] » ! وذكره ابن شُهَيْد فقال : « الفرق بينه وبين غيره أنه شديد أسْر الكلام ، ثم زاد بما فى أشعاره من الدليل على العلم بالخبر واللغة والنسب ، وما تراه من حوكه للكلام ، وملكه لأحرار الألفاظ ، وسَعَة صدره ، وجَيْشة بحْره ، وصحة قدرته على البديع ، وطول طَلَقِه فى الوصف ، وبُغْيته للمعنى وترديده ، وتلاعبه به وتكريره ، وراحته بما يتعب الناس ، وسعة نَفَسه فيما يُضَيِّقُ الأنفاس[3] » .

وواضح من آراء هؤلاء النقاد جميعاً أن ابن دراج كان شاعراً ممتازاً حتى ليجعله أبو حيان خاتمة محسنى أهل الأندلس أجمعين ، وهى مبالغة من بعض الوجوه ولكنها تدل على حقيقة مطوية فيها ، وهى أن ابن دراج يُعَدُّ من الشعراء الأفذاذ الذين ظهروا فى الأندلس . ونرى صاحب اليتيمة يقرنه بالمتنبى ، ويظهر أنه كان يتأثره فى شعره تأثراً شديداً لا يقل عن تأثر ابن هانئ ، وإن كنا نلاحظ أنه لم يستظهر فى شعره شيئاً من العبارات الشيعية والصوفية ، غير أنه بعد ذلك يستظهر جميع خصائص المتنبى ، فهو يميل إلى الغريب فى شعره من جهة ، كما يميل إلى التصنع للثقافات من جهة أخرى . ثم هو بعد ذلك كابن هانئ يُعْنَى باللفظ الطنّان وقعقعاته ، وقد تعلق — مثل المتنبى — فى مطلع مدائحه بشكوى الدهر والسخط على الناس فى عصره ، وساعده على ذلك أنه كان عصر فتن وثورات على الأمويين واستعداد لظهور ملوك الطوائف . ويظهر أنه عُرف بين الثائرين الناشئين بميله للأمويين إذ كان شاعر ابن أبى عامر كما قدمنا ، فازورّت

---

(١) الذخيرة لابن بسام ١/٤٣ .
(٢) الذخيرة ١/٤٤ .
(٣) الذخيرة ١/٤٥ .

عنه قلوب الملوك من حوله . يقول أبو حيان : « وكان ابن دراج ممن طرّحت به تلك الفتنة الشنعاء واضطرته إلى النُّجْعة ، فاستقْرَى ملوكها أجمعين ما بين الجزيرة الخضراء وسَرَقُسطة من الثغر الأعلى ، يهزّ كلا بمدحه ويستعينهم على نكبته ، وليس منهم من يُصْغي له ، ولا يحفظ ما أُضيع من حقه ، وأُرْخِصَ من عِلْقه[1] ، وهو يَخْبطهم خَبْطَ العِضاه[2] بمقوله ، فيَصمّون عنه ، إلى أن مرّ بِعَقْوة[3] منذر بن يحيى أمير سَرَقُسطة فألقى عصا سيره عند من بَوّاه ، ورحّب به وأوسع قِراه . فلم يزل عنده ، وعند ابنه بعده ، مادحاً لهما ، مثنياً عليهما ، رافعاً من ذكرهما ، غير باغ بدلا بجوارهما ، إلى أن مضى بسبيله ، بعد أن جرت له رحمه الله على إحسانه الباهر ، فى فتنة البرابر ، مع أملاك الجزيرة فى طول الاغتراب والنُّجْعة أخبارٌ شائعة ، فيها لذى اللبّ موعظة بالغة[4] » .

وهذا الجانب فى حياة ابن دراج جعله يشتعل شكوى من الدهر ، وقد وجد من أستاذه المتنبي خير مدد فى هذا الصدد ، فاستعار منه هذا الصوت ، وذهب يكبّره ما وسعه تكبيره . وربما كان لكثرة الفتن التى عاصرها أثر فى اندلاع هذه الشكوى التى تغمر شعره . وهو يخلط بين منهجى التصنيع والتصنع فى قصائده ، واستمعْ إليه يخاطب ابنه مبشراً بما لقى فى رحاب منذر بن يحيى :

أبُنَيَّ لا تذهبْ بنفسك حسْرَةً ... عن غَوْل رَحْلى مُنْجِداً أو مُغْورا
فلئن تركتَ الليلَ فوقَ داجيًا ... فلقد لقيتُ الصُّبح بعدك أزْهرا
وحللْتُ أرْضًا بُدِّلَتْ حَصْباؤها ... ذهبًا يَرِفُّ لناظرىَّ وجوْهَرا
ولْتَعْلم الأملاكُ أنى بَعْدَها ... ألفَيتُ كُلَّ الصَّيْد فى جوف الفَرا[5]
ورمى علىَّ رداءه مِنْ دونهم ... ملكٌ تُخُيِّر للعُلا فتَخَيَّرا
ضربوا قداحَهُمُ علىَّ ففاز بى ... من كان بالقدْح المعلىَّ أجْدرا[6]

---

(١) العلق : النفيس
(٢) العضاه : جمع عضاهة ، وهى الخمط أو كل شجرة كبيرة ذات شوك .
(٣) العقوة : ما حول الدار والمحلة .
(٤) الذخيرة ١ / ٤٤ .
(٥) الفرا : حمار الوحش . ومعنى المثل واضح .
(٦) القدح المعلى : أكثر قداح الميسر حظا فهو أعلاها .

وواضح من هذه الأبيات القليلة أن صاحبنا يُعْنَى — كما قال ابن شُهَيْد — بالخبر واللغة ، فهو هنا يتصنَّع لذكر المثل المعروف (كل الصَّيْد فى جوف الفَرا) كما يتصنع لفكرة القِداح المعروفة عند العرب القدماء ، ثم هو بعد ذلك يُعْنَى — كما لاحظ ابن شهيد أيضاً — بالبديع ، فى الأبيات الأولى يعنى بالطباق بين النَّجْد والغوْر والليل والصبح والحصباء والذهب ، واستمرّ معه فى القصيدة فسرّاه يقول :

كلاَّ وقد آنَسْتُ من «هود» هُدى ... ولقيتُ «يعرُبَ» فى القُيُول وحِمْيَرا
وأصبتُ فى «سَبَأٍ» مورَّثَ مُلكها ... يَسْبِى الملوكَ ولا يَدبّ لها الضَّرا[1]
فكأنمـا تابعتُ «تُبَّع» رافعـًا ... أعلامَـهُ مَلِكًا يدينُ له الورَى
و«الحارث الجفْنىّ» ممنـوعَ الحِمَى ... بالخيل والآسـاد مبذولَ القِرَى
وحططتُ رَحْلى بين ناريْ «حاتمٍ» ... أيام يَقْرِى مُوسِرًا أو مُعْسِرَا
ولقيتُ «زَيْدَ الخيْلِ» تحت عجاجةٍ ... تكسو غلائلُها الجيـادَ الضُّمَّرا
وعقـدتُ فى «يَمَنٍ» مواثقَ ذمَّةٍ ... مشدودةِ الأسباب مُوثقَةَ العُرَى
وأتيتُ «بَحْدَلَ» وهو يرفع منبَرًا ... للدين والدنيا ويَخْفِض منبرا[2]

وأظن صوت ابن دراج اتضح لنا الآن تمام الوضوح فهو يُعْنَى — كما قال ابن شهيد — بالنَّسب إذ يرد ممدوحه (منذر بن يحيى) إلى اليمن فينسبه إلى ملوكها ومشاهيرها ، وهو فى أثناء ذلك يصنِّع للجناس بين هود وهدى وسبأ ويسبى وتابع وتُبَّع ، أرأيت إلى ابن دراج ؟ إنه كما قال ابن شهيد يصنِّع للبديع كما يتصنع للغريب والأمثال كهذا المثل المعروف (يدب له الضَّراء). ولا يكتفى بذلك بل نراه يتصنع فى آخر هذه الأبيات للرفع والخفض المعروفين فى علم النحو ، وواضح ما فى ذكرهما من تكلف وتصنع . وهذا هو الصوت العام لابن دراج ؛ خَلْطٌ بين تصنع وتصنيع ، أو بعبارة أدق

---

(١) الضرا : الاستخفاء . يريد أنه يهجم على أعدائه جهاراً لقوته وشجاعته .

(٢) بحدل : هو بحدل بن أنيف الكلبى صهر معاوية وظهيره .

خلطٌ بين مذهب أبي تمام ومذهب المتنبي ، وقد قيلت هذه القصيدة نفسها على نسق قصيدة المتنبي فى ابن العميد :

بادٍ هواك صَبَرْتَ أمْ لم تَصْبِرَا وبُكاكَ إن لم يَجْرِ دمْعُكَ أوْ جَرَى

وكان مولعاً بتتبع المتنبي فى شعره والإغارة على معانيه ، ولاحظ ذلك صاحب الذخيرة فى غير موضع من شعره كهذا البيت :

أواصِلُ آناء الأصائل بالضُّحى وزادىَ من جَهْدى ، وراحلتى رِجْلى

فقد أخذه من قول المتنبي :

لا ناقتى تَقْبَل الرَّديف ولا بالسَّوْط يوم الرِّهان أُجْهِدها
شِراكُها كورُها ، ومِشْفَرُها زِمامُها ، والشُّسُوعُ مِقْوَدها[1]

وكذلك قوله فى وصف فرس :

وذو غُرَّةٍ معروفةِ السَّبْق فى المدَى وقد قَرِحَ التَّحجيلُ من حلَق الشُّكْل[2]

فقد أخذه من قول المتنبي :

وإن تكُنْ محكمات الشُّكْل تمنعُنى ظهورَ جَرْىٍ فلى فيهن تَصْهال[3]

ولم يكتف ابن دراج بتقليد المتنبي ، إذ كان يشغف بتقليد غيره من المشارقة كالشريف الرضى[4] وأبى نواس وقد عارض قصيدته فى مادح الخصيب :

أجارةَ بيتينا أبوكِ غيورُ وميسورُ ما يُرْجَى لديك عسيرُ

بقصيدة فى مدح المنصور بن أبى عامر مطلعها :

---

(١) الذخيرة ١/٦١. الرديف : من يرتدف خلف الراكب . الرهان : السباق. الشراك : سير النعل ، والشسع : ما يكون فى الأصابع منه . وواضح أن المتنبى يريد بناقته نعله وقد جعل شراكها بمنزلة الكور والرحل للناقة . وجعل مشفرها وهو مقدم الشراك بمنزلة الزمام ، والشسوع بمنزلة المقود .

(٢) التحجيل : بياض فى قوائم الفرس . الشكل : جمع شكال وهو القيد الذى تشد به قوائم الفرس .

(٣) الذخيرة ١/٦٣ .

(٤) الذخيرة ١/٧٢ .

ألمْ تعلمى أن الثَّوَاءَ هو الثَّوَى وأن بيوتَ العاجزين قبورُ (١)

ومنها فى وصف وداعه لزوجه وولدها الصغير :

ولمـا تدانتْ للوَداع وقد هَفَا بصَبْرِىَ منهـا أنَّهُ وزفيرُ
تناشـدُنى عَهْدَ المودَّة والهوى وفى المهْد مَبْغُومُ النداء صَغيرُ
عَيِيتُ بمَرْجوعِ الخطاب، ولفظُهُ بموْقع أهـواء النفوس خَبيرُ
تبـوَّأ ممنوعَ القلوب ومُهِّدَتْ له أذْرُعٌ محفوفـةٌ ونُحُورُ
فكلُّ مفدَّاة التَّرائب مُرضِـعٌ وكلُّ محيَّاة المحاسن ظِيرُ (٢)
عَصَيْتُ شَفيعَ النَّفس فيه وقادَنى رواحٌ بتدآب السُّرَى وبكورُ
وطار جناحُ البَيْنِ بى وهَفَتْ بها جوانحُ من ذُعْرِ الفراقِ تطيرُ

وهذه القطعة تفيض بالعواطف والشعور الحىّ ، وهى دليل على جودة شاعرية ابن دراج وأنه لو ترك نفسه على سجيّتها دون عناية بتقليد المذاهب المشرقية من صنعة وتصنيع وتصنع لاستطاع أن يترك لنا شعراً مليئاً بالحيوية والقوة والوجدان الفياض ، غير أنه كان يريد أن يثبت تفوقه ومهارته ، وهو لذلك يحاول أن يصنع شعره على صورة شعر المتنبى أو أبى تمام أو غيرهما من شعراء المشرق ، ونفس هذه القصيدة التى أتى فيها بهذه القطعة الممتازة نراه يختمها بهذين البيتين :

أثِرْنى لخطْب الدهر، والدهر معضِلٌ وكلْنى للَيْث الغاب وهْوَ هَصُورُ
وقد تُخْفَضُ الأسماءُ وهْىَ سواكنٌ ويَعْمَلُ فى الفعل الصحيح ضمير

ومعنى ذلك أنه كان يلتزم التصنع فى شعره حتى فى هذه القصائد التى يحاول أن يعبر فيها تعبيراً حرًّا عن عواطفه ، بل نحن نبالغ فليس عنده من حرية فى التعبير ، أليست هذه القصيدة التى نعجب فيها بوداعه لزوجه وولده قد نظمها فى حيز قصيدة أبى نواس إذ استعار منه الوزن والقافية ، كما استعار منه كثيراً من خواطره وأفكاره . واقرأ له هذه القطعة من قصيدة أخرى فى منذر بن يحيى :

عـلا فحوى ميراث عادٍ وتُبَّعٍ بهمَّتِه العُلْيا ونسْبته الدُّنْيَا

---

(١) الثوى : الهلاك .
(٢) الظئر : المرضعة لولد غيرها .

فأعرب عن إقدام «يَعْرُبَ» واحْتَبَى ... فلم يَنْسَ مَن «هُودٍ» سَنَاءَ ولا هَدْيَا
ومن «حِمْيَرٍ» ردَّ القنا أحمرَ الذُّرَى ... ومن سَبَأٍ قادَتْ كتائبُهُ السَّبْيَا
وما نام عنه عِرْقُ «قَحْطَانَ» إذ فَدَى ... عُروقَ الثَّرَى من غُلَّةِ القَحْطِ بالسُّقْيَا
ولا أَسْكَنَتْ عنه «السَّكونُ» زيادةً ... ولا رضيتْ «طَيّ» لراحته طَيَّا
ولا كَنَدَتْ أسيافُهُ مُلْكَ «كِنْدَةٍ» ... فتترك في أركان عزَّته وَهْيَا
وكائن له في «الأوْسِ» من حَقِّ أُسْوَةٍ ... بنَصْبِ الهُدى جَهْراً وبَذْلِ الندى خَفيا

فقد ملأ هذه القطعة بالجناس إذ جانس بين يعرب وأعرب وينس وسناء وهود وهدْى وحمير وأحمر وسبأ والسبي وقحطان والقحط وأسكنت والسكون وطيّ وطيًّا وكندت أي جحدت وكندة والأوس وأسوة ، أرأيت إلى كل هذه الجناسات المتكلفة ، ألا تحس أن لون الجناس عند صاحبنا قد أصبح شيئاً ثقيلاً على الأذن واللسان؟ غير أنه بدع جديد كان يراه الشاعر الأندلسي في شعر المشارقة فيتعلق به كما يتعلق بالطباق على نحو ما نرى في هذه القطعة نفسها ، وكما يتعلق بألوان التصنع الأخرى من ذكر الأنساب أو الألفاظ الغريبة أو الأمثال أو النحو . وكان ابن دراج لا يكتفي بذلك إذ نراه في شعره يعنى بالاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف كقوله في الوزير أبي الأصبغ عيسى بن سعيد القطاع :

أبا الأصْبَغِ المَعْنِيَّ هل أنت (مُصْرِخي ؟)
وهل أنت لي مُغْنٍ ؟ وهل أنتَ لي مُعْلي ؟

وقوله في علي بن حمود :

تجـزَّأ مـن جَنَّتَيْ مَأْرِبٍ ... (بِخَمْطٍ وأثْلٍ وسِدْرٍ قَلِيلِ)

وقوله في خيران العامري صاحب المريَّة :

فتىً سيفه للدين أمْنٌ وإيمـانُ ... ويُمْناهُ للآمالِ رَوْحٌ وريْحَانُ
فَفُضَّتْ سيوفٌ حاربتْهُ وأيْمُنٌ ... (وشاهَتْ) وجوهٌ فاخرتْهُ وتيجانُ

وأكبر الظن أن منهج ابن دراج اتضح لنا الآن وتكشف عن جميع صفاته وخصائصه وهو ليس منهجاً جديداً ، فالأندلس لا تستطيع أن تمدَّ الأدب العربي

بمنهج جديد لا من حيث الموضوعات ولا من حيث المعانى ولا من حيث الأخيلة والأساليب ، إنما كل ما هنالك أنها تستطيع أن تفخر بشعراء يعيشون فى إطار الشعر العباسى العام ، وهم يعيشون فى هذا الإطار معيشة مضطربة ، إذ نرى الشاعر الواحد يخلط بين مذاهب الفن العباسى خلطاً شديداً ، فهو تارة صانع يفيض بالشعور ولا يجعل للزخرف سبيلاً إليه كما رأينا عند ابن دراج فى وداعه لزوجه وطفله ، وتارة نراه متصنعاً يعنى بالتصنع للثقافات ، كما يعنى بالغريب والأنساب والأمثال والاقتباس من القرآن الكريم على نحو ما رأينا عند ابن دراج أيضاً ، ثم هو أخيراً مصنِّع ، يشفع شعره بألوان التصنيع والزخرف العباسى من جناس وطباق وتصوير ، على نحو ما مر بنا عند ابن دراج . وهكذا نرى الشاعر الأندلسى يجمع فى شعره بين جميع المذاهب العباسية ، وهذا هو معنى ما نقول من أن الشعراء الأندلسيين يخلطون خلطاً شديداً بين المذاهب الفنية للشعر العربى إذ يستعيرون منها جميعاً بدون تفريق ولا اختلاف فى التطبيق . على أنه ينبغى أن نتريث قليلاً فى هذا الحكم العام على الأندلس وشعرائها حتى نرى شعرهم وما أصابه من نهضة فى عصر ملوك الطوائف .

٤

نهضة الشعر الأندلسى

لا نكاد نمضى فى صدر القرن الخامس الهجرى حتى نرى الدولة الأموية التى أقام صَرْحها عبدالرحمن الداخل وأبناؤه تتحطم ويحل مكانها نظام جديد ، يقوم على أن تحكم كل مدينة كبيرة فى الأندلس نفسها بنفسها ، ويُعْرَفُ هذا النظام باسم نظام ملوك الطوائف ؛ إذ أصبح فى كل مدينة فرد أو أسرة تحكمها حكماً منظماً ، وقد اشتد التنافس بين هذه المدن ، واستطاعت الأندلس عن طريق هذا التنافس أن تظفر بأكبر حظ من النشاط العلمى والأدبى ، إذ كان كل أمير ، أو ملك كما كانوا يسمونه ، يريد أن يبذّ من حوله فى القوة والسلطان والثروة المادية والعقلية والفنية . وإن الإنسان ليحس تشابهاً — من بعض الوجوه — بين نظام

الأندلس فى هذا العصر وبين نظام اليونان فى العصور القديمة ، إذ كانت تنافس أثينا إسبرطةَ وغيرها من المدن اليونانية ، وكما أن هذا النظام اليونانى القديم يُعَدُّ أزهى عصور اليونان بما تركوا فيه من آثار فنية وفلسفية وأدبية ، كذلك يُعَد عصر ملوك الطوائف من أزهى عصور الأندلس من الوجهة الحضارية . واستمرت هذه الحركة الدافعة فى العصرين التاليين عصر المرابطين والموحدين إذ استطاعت الأندلس أن تظفر بطائفة من الفلاسفة كابن باجة وابن رشد ، كما استطاعت أن تظفر بطائفة كبيرة من العلماء فى الأبحاث الدينية والأبحاث النحوية. وهى أيضاً حققت لنفسها رقيًّا واسعاً فى الأدب بقسميه من شعر ونثر . وبذلك نهض الشعر الأندلسى نهضة واسعة فى هذه العصور وهى نهضة ظلت فى حدود الصورة العامة لشعرنا العربى ، فلم يَثُرُ الشعراء هناك على خطوط هذه الصورة وظلالها وأضوائها ، بل ظلوا يعيدون رسمها ، لا يكلّون ولا يملّون ، وفى أثناء ذلك يقعون على تشبيهات واستعارات طريفة ، وقد يمتد ذلك إلى مقطوعات بديعة فى الغزل وغير الغزل كقول يحيى بن بَقِىّ (١) :

عاطيتهُ والليل يَسْحَبُ ذيله ... صَهْباء كالمسك الفتيق لناشقِ
وضممتُه ضمَّ الكمىّ لسيفه ... وذؤابتاه حَمائلٌ فى عاتقى
حتى إذا مالتْ به سِنَةُ الكرى ... زَحْزَحْتُه شيئًا وكان معانقى
باعدتُه عن أضلعٍ تشتاقه ... كى لا ينام على وِسادٍ خافقِ

وقول ابن شَطْرِيَّة (٢) :

سَتَرَ الصبح بطُرَّهْ ... وجَلاَ الليلَ بغُرَّهْ
وأرى من وجهه فى ... قَدِّه غُصْنًا وزَهْرَهْ
جاءنى كالظَّبْىْ فى أشْـ ... ـراكه إذ حَلَّ شَعْرَه
ومضى عنى ولكنْ ... بعد ما خَلَّفَ نَشْرَه
فترانى فى افتضاحٍ ... كلما أخفيتُ سِرَّه

(١) معجم الأدباء (طبعة القاهرة) ٢٠/٢٣ والمغرب لابن سعيد (طبع دار المعارف) ٢/٢١ .
(٢) المغرب ١/١٤٠ .

وقول أبي حفص عمر بن عمر [١] :

هم نظروا لواحظها فهاموا ... وتشرب عقل شاربها المدامُ
يخاف الناسُ مُقْلتها سواها ... أيَدْعَرُ قلبَ حامله الحسامُ
سما طَرْفي إليها وْهو باكٍ ... وتحت الشمس يَنْسَكِبُ الغمام
وأذكر قَدَّها فأنوحُ وَجْداً ... على الأغصان يَنْتَدِبُ الحمام
وأعقب بيْنُها في الصَّدْر غمًّا ... إذا غربتْ ذُكاءُ أتى الظلام

والقطع جميعاً تستمد من جُذاذات الشعر المشرق في المعاني والصور، ولكنها تعيدها في معارض جديدة، فيها طرافة الخيال وبراعة التصوير. وكانوا كثيراً ما يلمُّون بوصف وداع المعشوقة في الصباح، ولكن لا تظن أنهم يسبقون المشارقة في ذلك، فإننا نجد هذا الوصف عند عمر بن أبي ربيعة في قصيدته المشهورة (أمن آل نُعْمٍ أنت غادٍ فمُبْكِرُ) ونقله عنه العباسيون من أمثال أبي فراس، وشاع عنهم في الأندلس بين الشعراء والوشاحين والزجالين.

وربما كان أهم موضوع برع فيه الأندلسيون هو وصف الطبيعة، وقد أعانهم فيه جمال المناظر في إقليمهم، ولهم فيه روائع كثيرة، وهي روائع كانت تستمد من كنوز الشعر العباسي، مضيفة إليها أخيلة دقيقة كثيرة، على شاكلة قول الرُّصافي يصف نهراً وما على جانبيه من أشجار تتراءى على صفحته ظلالها [٢] :

ومُهَدَّلِ الشطَّين تحسب أنه ... متسايلٌ من دُرَّةٍ لصفائه
فاءتْ عليه مع الهجيرة سَرْحَةٌ ... صَدِئتْ لِفَيْئَتِها صفيحةُ مائه [٣]
وتراه أزرق في غِلالة سندسٍ ... كالدَّارع استلقى لظل لوائه

وقد يمزجون وصف الطبيعة بالخمر ووصف الصباح أو وصف المساء، فنقع عندهم على صور طريفة كهذه الصورة للرصافي أيضاً إذ يقول :

وعشيٍّ رائقٍ منظرُهُ ... قد قطعناه على صِرْف الشَّمول [٤]

---

(١) انظر الأبيات في كتاب رايات المبرزين لابن سعيد.

(٢) راجع الأبيات في رايات المبرزين.

(٣) السرحة: الشجرة، فاءت: نشرت فيئها أي ظلها.

(٤) الشمول: الخمر، وصرفها: خالصها.

وكأن الشمس فى أثنـائـه ... ألصقتْ بالأرض خدّاً للنزولْ
والصَّبا ترفع أذيال الرُّبى ... ومحيّا الجوّ كالنَّهرِ الصَّقيل
حبّذا منزلُنا مُغْتَبَقاً ... حيث لا يُطربنا إلا الهَديل[1]
طائـرٌ شادٍ وغصْنٌ مثنٍ ... والدُّجَى يشرب صَهْباء الأصيل

ودائماً تلقانا مثل هذه الصور الطريفة فى أشعارهم ، لا فى وصف الطبيعة والغزل فحسب ، بل أيضاً فى مدائحهم ومراثيهم ، كقول ابن عمّار يمدح المعتضد ملك إشبيلية [2] :

أنْدَى على الأكباد من قَطْرِ النَّدى ... وألَذُّ فى الأجفان من سِنَةِ الكَرَى

ومثل قول أبى عامر بن الحمارة يرثى زوجه [3] :

ولما أن حللت التُّرْبَ قلنـا ... لقد ضلَّتْ مواقعَها النجومُ
ألا يا زهـرةً ذبلتْ سريعًا ... أضنَّ المُزْنُ أم ركَد النسيم

واشتهروا بمراثيهم للدول الزائلة ، ومراثى ابن اللبّانة فى بنى عباد مشهورة ، وكذلك مراثى ابن عَبْدون فى بنى الأفطس أصحاب بَطَلْيَوْس ، ومن بديع قوله فيها هذا المطلع الرائع لإحداها [4] :

ما لليالى أقال اللهُ عَثْرتَنَا ... من الليالى وخانَتْها يَدُ الغِيَرِ
تَسُرُّ بالشىء لكن كى تَغُرَّ به ... كالأيْمِ ثار إلى الجانى من الزَّهَرِ [5]

ولم تسقط مدينة فى يد مسيحيى الشمال إلا بكوها وتفجعوا عليها تفجعاً حارًّا ، وهو تفجّع كانوا يضمنونه استصراخاً للمسلمين فى مغارب الأرض ومشارقها لعلهم يستنقذون تلك المدن من براثن الإسبان ، ويعيدونها إلى حظيرة الإسلام ، قبل أن تُدَكَّ هناك كل صروحه وتسقط كل راياته وأعلامه .

ومن غير شك نهض الشعر العربى فى هذا الفردوس المفقود نهضة رائعة . على أنه ينبغى أن لا نبالغ فى تصور هذه النهضة ، إذ كان الأندلسيون يولّون

---

(١) المغتبق : مكان الاغتباق وهو شرب المساء . الهديل : صوت الحمام وفرخه .
(٢) المغرب ١/٣٩١ .
(٣) المغرب ٢/١٢٠ .
(٤) المغرب ١/٣٧٦ .
(٥) الأيم : الثعبان .

وجوههم دائماً نحو المشرق يقلدون شعراءه فى مذاهبهم ونماذجهم ، ولعله من أجل ذلك شاعت عندهم فكرة معارضة قصائد المشارقة ، فابن بُرْد الأصغر ينظم قصيدته :

بخـــداعٍ عـَّللوهُ وبهـَجْرٍ وَصلُوهُ

على نمط قصيدة لشاعر من شعراء بغداد فى وزنها وَرويِّها [1] ، وابن زيدون ينظم قصيدته المشهورة :

بِنْتُمْ وبِنَّا فما ابتلَّت جوانحُنا شوقًا إليكمْ ولا جفَّتْ مآقينا

على نمط قصيدة البحترى :

يكاد عاذلُنا فى الحبّ يُغْرينا فما لحاجتُكَ فى عذْلِ المحبِّينا

وابن خفاجة ينظم قصيدته :

كفانى شكوى أنى أرى المجدَ شاكيا وحسبُ الرزايا أن ترانىَ باكيا

على نمط قصيدة المتنبى :

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا وحسبُ المنايا أن يكنَّ أمانيا

وهو كذلك ينظم قصيدته :

قل لمَسْرى الريحِ منْ إضَمِ ولياليـنـا بـــذى سَلَمِ

على نمط قصيدة أبى نواس ، إن صَحَّ أنها له :

يا شقيقَ النفس منْ حَكَمِ نمْتَ عن ليـــلى ولم أنَمِ

وعلى هذه الشاكلة يصوغ الشعراء قصائدهم على صورة القصائد العباسية ، وهى صورة لا تقف عند المشابهة فى الوزن والروى ، بل تمتد إلى المشابهة فى المعانى والأساليب ، وكأنما القصيدة فى رأيهم ليست إلا تلفيقاً للمواد الفنية التى تركها العباسيون ، فهم يُبْدئون ويعيدون فى المعانى والصور الموروثة دون أن يضيفوا

(١) الذخيرة ٢/٤٣ .

إليها جديداً إلا قليلاً . إنما هى مواد وعناصر تتراكم وتتجمع فتُحدث قصيدة ولكنها لاتحدث عملاً فنياً قيماً إلا فى الندرة، أما الكثرة فإنها تُصْنَع تحت تأثير المواد العتيقة ، ولقد كان حرياً بالشعراء أن ينحُّوا عن شعرهم كل ما هو عتيق، غير أن التفكير الفنى عند العرب كان قد فقد كل مقدرته على الابتكار والتجديد ولذلك لم يستطع الأندلسيون أن يتجهوا بشعرهم إلى وجهات جديدة ، سوى ما سنراه بعد قليل عندهم من الموشحات والأزجال ، أما بعد ذلك فالشعر الأندلسى باق على قديمه العربى ، سوى ما كان من تجديداته فى أوزان موشحاتهم وأزجالهم ، وهى تجديدات اضطرهم إليها الغناء اضطراراً، أما بعد ذلك فأساليبهم وصورهم هى نفس الأساليب والصور المشرقية . ونحن نبحث عبثاً إذا حاولنا أن نجد عند الأندلسيين رغبة فى تغيير صياغة الشعر تغييراً تاماً بحيث تدفع بالشعراء إلى إحداث مذهب جديد ، إنما هم يعيشون فى الإطار الفنى العباسى العام وما فيه من مذاهب الصنعة والتصنيع والتصنع يخلطون بين هذه المذاهب فى غير نظام ولا نسق معين على نحو ما رأينا سابقاً عند ابن هانئ وابن دراج ، ونحن نقف عند نفر من شعراء هذا العصر لنرى حقيقة هذا الرأى ومدى صحته .

ابن برد الأصغر

هو أبو حفص أحمد الأصغر حفيد ابن بُرْد الأكبر الذى كان وزيراً فى الأيام العامرية وكان كاتباً بليغاً أيضاً [١] . حدَّث الحُميْدى أنه رآه فى المريّة بعد الأربعين وأربعمائة غير مرة[٢]: وأشاد به صاحب الذخيرة إذ يقول « كان أبو حفص بن بُرْد الأصغر فى وقته فلك البلاغة الدائر ومثلها السائر ، نفّث فيها بسحره ، وأقام من أوَدها بناصع نظمه وبارع نثره ، وله إليها طروق ، وفى عروقها الصالحة عروق [٣] » . ومن يرجع إلى القطعة التى رواها له صاحب

---

(١) انظر ترجمته فى المغرب ١/٨٦ وبغية الملتمس للضبى ص ١٥٣ والمطمح للفتح ص ٢٤ والذخيرة ٢/١٨ ومعجم الأدباء لياقوت ٢/١٠٦ .

(٢) معجم الأدباء ٢/١٠٦ .

(٣) الذخيرة ٢/١٨ .

الذخيرة من شعره [1] ، وهى قطعة كبيرة يراه يحتذى دائماً على مثال العباسيين ، بل إنه ليبلغ من ذلك مبلغاً لا يكاد يدور بخلد الإنسان ، فقلما يوجد له معنى إلا وهو مسبوق به ، قد طرقه الشعراء من قبله ، ولاحظ ذلك عليه صاحب الذخيرة فى غير موضع من روايته لشعره ، فمن ذلك قوله فى النسيب :

لما بدا فى لا زَوَرْ ... دىِّ الحرير وقد بَهَرْ
كبَّرْتُ من فَرْط الجما ... ل وقلتُ ما هذا بَشَرْ
فأجابنى لا تُنْكرَنْ ... ثَوبَ السَّماءِ على القَمرْ

وهو من قول ابن الرومى :

يا ثَوْبهُ الأزْرقَ الذى قدْ ... فاقَ العِراقىَّ فى السَّناءِ
كأنَّه فيه بَدرُ تِمٍّ ... يَشُقُّ فى زُرْقةِ السماءِ

وقول ابن المعتز أيضًا :

وبنفسجىّ الثوبِ قَتْـ ... ـلُ محبِّهِ من دابِهِ
الآن صرتَ البدر حـ ... ـين لَبسْتَ ثوبَ سَحابه

ونستمر فى قراءة ابن برد ، فإذا هو يقول :

بأبى أنتَ وأمى ... لِمْ تطبَّعْتَ بظُلْمى
أبداً تأتى بعتْبٍ ... دون أن آتى بجُرْمِ
بيننا فى الحب قُرْبىَ ... سُقْمُ عينيك وجسمى

وهو من قول ابن الرومى :

يا عليلاً جعَلَ العلـ ... ـةَ مفتاحًا لسُقْمى
ليس فى الأرض عليلٌ ... غيرُ جفْنَيْكَ وجسمى

وهو كما يتأثر ابن الرومى نراه يتأثر ابن المعتز ، بل ربما كان تأثره بابن المعتز أكثر وأوضح ، فقد تعلق مثله بالأوصاف والتشبيهات فمن ذلك قوله :

---

(١) انظر الذخيرة الجزء الثانى من ص ٣٧ إلى ص ٥٠ .

عارضٌ أقبلَ فى جُنْحِ الدُّجَى ... يتهادى كتهادى ذى الوَجَى [1]
أتلفتْ ريـــحُ الصَّبا لؤلؤَهُ ... فانحنى يُوقد عنه السُّرُجا

وقوله :

وكأن الليل حين لَوى ... هاربًا والصُّبْحُ قد لاحا
كِلَّةٌ سوداءُ حرَّقَها ... عامدٌ أسْرَجَ مصباحا

فإن ذلك كله من قول ابن المعتز الذى مَرَّ فى غير هذا الموضع :

والصبح يتلو المُشْتَرِى فكأنَّهُ ... عُرْيانُ يَمشى فى الدُّجى بسراجِ

ويقول ابن برد فى وصف كلف البدر :

والبدر كالمرآة غيَّرَ صَقْلَها ... عَبَثُ العَذارى فيه بالأنفاسِ
والليل ملتبسٌ بضوء صباحهِ ... مثل التباسِ النِّقْسِ بالقرطاس [2]

وهو واضح الصلة بقول ابن المعتز فى وصف فرند السيف :

جرى فوق مَتْنَيْهِ الفِرِنْدُ كأنما ... تنفسَ فيه القينُ وهو صَقيل

وعلى هذا النمط نرى ابن برد يمضى فى تأليف شعره ، وكأنه نسخة طبق الأصل من شعر أصحاب المشرق ، وخاصة ابن المعتز وابن الرومى .

والحق أنه ينبغى أن لانتعلق بالفكرة الشائعة من أن الأندلس كان لها شخصية واضحة فى تاريخ الشعر العربى ، فإن هذه الشخصية تنحصر فى كثرة الإنتاج وخاصة فى شعر الطبيعة ، أما بعد ذلك فالأندلس تستعير من المشرق موضوعات شعرها ومعانيه وصوره وأساليبه وكل ما يتصل به استعارة تكاد تكون طبق الأصل ، على نحو ما نرى الآن عند ابن بُرْد ، فقد استقر فى أذهان الشعراء أن خير عصور الشعر وأزهاها هو العصر العباسى وما ينطوى فيه من شعراء عظام أمثال أبى نواس وأبى تمام والبحترى وابن الرومى وابن المعتز والمتنبى ، فذهبوا يقرءون هؤلاء الشعراء وأمثالهم ، ثم أخذوا يحاكونهم دون

---

(١) العارض : السحاب الممطر . الوجى : الخفا أو أشد منه .
(٢) النقس : المداد .

أن يفهموا مذاهبهم فهماً واضحاً أو يعرفوا ما بين هذه المذاهب من مفارق واسعة ، وكأنى بالأندلسيين انتهوا إلى التقليد وارتضوه لأنفسهم فعاشوا فى الشعر العربى هذه المعيشة التقليدية التى نرى آثارها الآن عند ابن برد وغيره من الشعراء.

ابن زيدون

لعله يحسن بنا أن نقف عند ابن زيدون [1] لننظر فى حقيقة هذا الحكم العامّ الذى نحكم به على شعراء الأندلس ، وكان حامل لواء الشعر فى عصره ، وهو من أسرة اشتهرت بالفقه ، ونعمت بالثراء . وُلد بقرطبة سنة ٣٩٤ للهجرة واهتم به أبوه منذ نعومة أظفاره فأحضر له الأدباء المعلمين والفقهاء والمثقفين ، ولم تلبث ملكته الشعرية أن تفجرت على لسانه ينبوعاً عذباً ، فعلا شأنه ولمع نجمه.

وليس بين أيدينا أخبار واضحة عن موقفه فى حوادث سقوط الدولة الأموية ، وإن كنا نظن أنه لم يقف مكتوف اليدين إزاءها ، بل لعله كان أحد من أعانوا فى قيام دولة بنى جَهور واعتلاء أبى الحزم عرش قرطبة سنة ٤٢٦ . ونراه غارقاً فى حبّ ولادة بنت الخليفة المستكفى ، وكان ابن عبدوس ينافسه فى هذا الحب ، ويظهر أنه كان أحد من وشَى به إلى أبى الحزم ، إذ نسبت إليه مؤامرة ضده للعودة بزمام الأمور إلى بنى أمية ، فأودع السجن سنوات طوالا ، وهو يضرع إلى أبى الحزم بشعره ورسالته الجِدّية ، واستشفع بابنه أبى الوليد ولكنه لم يَعْفُ عنه فهرب من السجن ليلة عيد . وأخيراً عفَى عنه أبو الحزم ، وقرّبه أبو الوليد منه ، حتى إذا توفّى أبوه وولِّى مكانه عيَّنه للنظر على أهل الذمة ، ثم رفعه إلى مرتبة الوزارة ، وسفَر بينه وبين كثير من ملوك الإمارات الأندلسية . وفسدت الأمور بينه وبين أبى الوليد كما فسدت بينه قبلا وبين أبيه ، فولىّ وجهه نحو إشبيلية واستقبله ملكها المعتضد استقبالاً حافلاً ، واتخذه وزيراً له ، كما اتخذه من بعده ابنه المعتمد وزيره ومستشاره واستطاع بفضل جهوده أن يغزو قرطبة

(١) انظر كتابنا « ابن زيدون » طبع دار المعارف حيث فصلنا الحديث عن حياته وشعره وراجع الذخيرة ١/٢٨٩ والقلائد للفتح ابن خاقان ص ٧٠ والمغرب فى حلى المغرب ١/٦٣ والمعجب للمراكشى (طبعة دوزى) ص ٧٤ والحلة السيراء لابن الأبار ص ٤٥ .

ويستولى عليها . وحدث أن أرسل به المعتمد إلى إشبيلية فى بعض المهام، فدعاه القدر هناك إلى جوار ربه سنة ٤٦٣ .

وخصومةُ ابن زيدون لابن عبدوس — كما قدمنا — لم تكن ترجع إلى أسباب سياسية إنما كانت ترجع إلى حبه لولاّدة بنت الخليفة المستكفى، فقد كان يحبها كذلك ابن عبدوس ، وجعله هذا الحب يصطدم بابن زيدون ، فكاد له حتى سجنه. وحياة ابن زيدون من الوجهة الأدبية حياة طريفة ، فقد تعلق بولادة وأصبح مغرماً بها صبًّا ، وكان لها منتدى لطيف تجلس فيه للرجال والشعراء ، ويظهر أنها كانت ماجنة خليعة. يقول صاحب الذخيرة إنها « أوجدت إلى القول فيها السبيل بقلة مبالاتها ومجاهرتها بلذاتها . كتبت — زعموا — على أحد عاتقىْ ثوبها :

أنا واللهِ أصلحُ للمعالى وأمْشِى مِشْيَتى وأتيه تيهَا

وكتبت على الآخر :

وأمكن عاشقى من صَحْنِ خدّى وأُعْطى قُبْلَتى مَنْ يشتهيها[1] »

وهناك نص طويل يرويه صاحب الذخيرة عن ابن زيدون يصف فيه إحدى وقائعه الغرامية معها ذات ليلة [2] ، ومن يرجع إلى مجموع ما رُوى عن حياة ولاّدة فى الذخيرة ونفح الطيب ، ثم يرجع مع ذلك إلى ما روى فى نفح الطيب عن غيرها من حرائر الأندلس[3] يحس أن المرأة الأندلسية الحرة لعبت فى الأدب الأندلسى دوراً يشبه من بعض الوجوه دور المرأة فى الأدب الفرنسى فى أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وليس من شك فى أن هذه الناحية تعطى ديوان ابن زيدون أهمية فى تاريخ الشعر الأندلسى . على أنه ينبغى أن نعرف أن حبه لولادة اصطدم بأشياء، إذ نراها تؤثر ابن عبدوس عليه ، ثم يفرّق بينهما السجن ولا يستطيع أن يجد سبيلاً إلى لقائها ، ثم يكون الحرمان منها بخروجه عن قرطبة إلى إشبيلية ، ولوّن ذلك شعره بألوان من الصبابة بها واللوعة، فرأيناه يصف أيامه معها ، كما يصف المعاهد التى كانا يتفرّجان

---

(١) الذخيرة ١/٣٧٦ .

(٢) الذخيرة ١/٣٧٧ .

(٣) انظر الجزء الثانى من نفح الطيب (طبع بولاق) من ص ١٠٧٦ إلى ١١٧٣ .

عليها أو يتنزهان فيها ، ومعنى ذلك أن شعره يفيض بالعواطف ويكتظ بالشعور ، ولعله من أجل ذلك كان يسميه النقاد باسم بحترىّ الأندلس ، فذوقه أقرب إلى ذوق البحترى ، إذ يطلب فى شعره أن يعبر عن خواطره فى حرية دون تقييد بضروب التصنيع أو التصنع ، غير أنه ينبغى أن نقيِّد هذا الكلام ، لأن من يتتبع ابن زيدون فى ديوانه يجده كبقية الشعراء الأندلسيين يخلط بين مذاهب العباسيين من صنعة وتصنيع وتصنع فى غير طريقة مرسومة ولا خطة موضوعة . ومَرَّ بنا أن أهم قصائده وهى (بنتم وبنّا) قد صنعها على نمط قصيدة للبحترى ، وهو فى قصائده الأخرى لا يزال يعيش هذه المعيشة التقليدية ، واقرأْ له هذه القطعة المشهورة :

ما على ظَنِّىَ باسُ ... يَجْرَحُ الدهْرُ ويأسُو
ربما أشْرَفَ بالمرْ ... ء على الآمال ياسُ
ولقدْ يُنْجِيكَ إغْفا ... لٌ ويُرْدِيكَ احتراس
والمحاذيرُ سهامٌ ... والمقادير قياسُ[1]
يا أبا حَفْصٍ وما سا ... واكَ فى فَهْمٍ إياسُ[2]
من سَنا رأيكَ لى فى ... ظُلَمِ الخَطْبِ اقتباس[3]
وَوِدادى لك نصٌّ ... لم يخالفْهُ القياسُ

فإنك تراه يصنِّع إذ يطابق بين يجرح ويأسو ، كما يجانس بين يأسو فى البيت الأول ويأس فى البيت الثانى ، وهو كذلك يتصنع لذكر النص والقياس والاقتباس. فحتى النموذج الواحد فيه خلطٌ بين المذاهب ، فالشاعر تارة يصنِّع وتارة يتصنع ، ومع ذلك فهذه القطعة قريبة من ذوق الصانعين بما اشتملت عليه من حسن جرْس وإيقاع ! .

وإذا تركنا هذا المظهر العام فى شعره من الخلط بين المذاهب الفنية العباسية إلى تتبع معانيه وأخيلته وأساليبه وجدنا صورتها العامة هى الصورة العباسية وقد

---

(١) قياس هنا : جمع قوس .
(٢) هو إياس بن معاوية من قضاة العراق فى العصر الأموى وكان يشتهر بالذكاء وحدة الفهم.
(٣) سنا : ضوء .

عُنى صاحب الذخيرة ببيان هذا الجانب فى شعره ، فرأيناه يرجع عشرات من أبياته وأشعاره إلى دواوين العباسيين وخاصة البحترى وأبا تمام والمتنبي والمعرى، فمن ذلك قوله فى وصف سواد ليلة :

ياليت ذاكَ السَّوادَ الجَوْنَ مُتَّصِلٌ ... قد استعار سَوادَ القَلْبِ والبَصَرِ (١)

فقد استعاره من قول أبى العلاء :

يسودُّ أنَّ ظلامَ الليل دامَ له ... وزيدَ فيه سوادُ القلب والبَصَرِ (٢)

ويقول ابن زيدون فى بنى جَهْور :

بنى جَهْورٍ أحرقتمُ بجفائكمْ ... جَنانى ، فما بالُ المدائحِ تَعْبَقُ (٣)
تعدُّونى كالعَنْبَرِ الوَرْدِ إنما ... تَطيبُ لكم أنفاسُهُ حينَ يُحْرَقُ (٤)

وهو بيّن الصلة بقول أبى تمام :

لولا اشتعالُ النار فيما جاورتْ ... ما كان يُعْرَفُ طيبُ عَرْفِ العُودِ

وكذلك قوله :

هَرِمْتُ وما للشيب وَخْطٌ بمَفْرِقى ... ولكنْ لشيب الهمِّ فى كَبِدى وَخْطُ (٥)

واضح الصلة بقول المتنبى :

إلا يشبْ فلقد شابتْ له كبدٌ ... شيباً إذا خضبتْهُ سَلْوَةٌ نصَلا (٦)

وكذلك قوله فى المديح :

وصَلْنا فقبَّلْنا النَّدى منك فى يدٍ ... بها يُتْلَفُ المالُ الجسيمُ ويُخْلَفُ

مأخوذ من قول البحترى :

دَنَوْتُ فقبَّلْتُ النَّدى من يدامرئٍ ... كريمٍ مُحَيَّاهُ سِباطٍ أنامِلُه (٧)

يقول صاحب الذخيرة « وبيت ابن زيدون لفظ بيت البحترى ومعناه ،

---

(١) الجون : الحالك .
(٢) الذخيرة ١/٢٩٩ .
(٣) تعبق : تفوح .
(٤) الورد : الأحمر ، ولعله يقصد الزعفران لحمرته .
(٥) وخط الشيب : انتشاره .
(٦) نصل الشعر : زال عنه الخضاب .
(٧) سباط : جمع سبط ضد الجعد ، وسباط أنامله : كناية عن الكرم .

ويقول بعض أدبائنا إن ابن زيدون بحترى زماننا وصدقوا [١] » . وهو حقًّا يشبه البحترى فى صوته ، ولكنه — كما نرى الآن — كان يتتبع غيره من الشعراء ويحتذى على أمثلتهم فى أفكاره ومعانيه كقوله فى المديح :

ومحاسنٌ تَنْدى رقائقُ ذِكْرِها فتكادُ توهمُكَ المديحَ نَسيبا

فإنه من قول أبى تمام :

طابَ فيهِ المديحُ والتَذَّ حتى فاقَ وَصْفَ الديارِ والتَّشْبِيبا

وكذلك قوله :

إن السيوف إذا ما طابَ جَوْهَرُها فى أوّلِ الطَّبْعِ لم يَعْلَقْ بها الطَّبَعُ [٢]

من قول أبى تمام :

والسَّيْفُ ما لم يُلْفَ فيهِ صَيْقَلٌ من سِنْخِهِ لم يَنْتَفِعْ بِصِقالِ [٣]

والحق أن الإنسان لا يتابع ابن زيدون فى شعره ، حتى يحس بأن هذا الشعر يوشك أن يسقط من ديوانه ، فيرتد إلى أمكنته من شعر العباسيين ، ولعل هذا ما جعل صاحب الذخيرة يقول : « وأبو الوليد بن زيدون على كثير إحسانه كثير الاهتدام فى النَّثار والنظام [٤] » . وهو حقًّا كثير الاهتدام لأشعار العباسيين يغير عليها فيسلبها من دواوينها ويسلكها فى شعره على هذا النحو الذى رأيناه . وما أشك فى أن صوت ابن زيدون اتضح لنا الآن فهو بالرغم مما يبدو عليه من صفاء وعذوبة صوتٌ مصنوع ، إذ هو صدًى لصوت العباسيين ، وهو صدى لا يطَّرد على نسق واحد ، لأن الشاعر لا يختار له نسقاً معيناً يعيش فيه ، بل هو يعيش فى كل نسق يقرؤه ، فتارة يعيش فى جَوِّ البحترى وأخرى فى جو أبى تمام أو المتنبى أو أبى العلاء من غير تفريق بين هؤلاء الشعراء ومعرفة أن كلا منهم يمثل مذهباً خاصًّا له ، وهذا هو معنى ما نقوله من أن الشاعر الأندلسى ما يزال فى شعره يخلط بين جميع المناهج والمذاهب العباسية .

---

(١) الذخيرة ١/٣٢٦ .
(٢) الطبع : الصدأ .
(٣) السنخ : الأصل والجنس .
(٤) الذخيرة ١/٣٠٥ .

ابن خفاجة

هو أبو إسحق إبراهيم[١] بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة ، عربي الأصل ، وُلد سنة ٤٥٠ للهجرة بجزيرة شُقُر من أعمال بلنسية ، وهي جزيرة يحيط بها نهر هناك ، فيجعلها جنة من جنان الأندلس . وقد نشأ في بيت علم وأدب ، وأقبل على الدرس ، وسرعان ما تفتحت مواهبه الشعرية ولمع اسمه واشتهر واتجه بشعره إلى تصوير الطبيعة الجميلة من حوله ، ويقول ابن بسام في الذخيرة إنه لم يتعرض لاستماحة ملوك الطوائف مع تهافتهم على الأدب ، غير أننا لا نمضي إلى عصر المرابطين (٤٨٤ — ٥٣٩ هـ) حتى نجده يمدح واليهم في الأندلس إبراهيم بن يوسف بن تاشفين ومساعديه من العمال والقضاة أمثال ابن تيفلويت حاكم شرقي الأندلس وأبي العلاء بن زُهْر الطبيب والفقيه المشهور . وذهب إلى حاضرة المرابطين في المغرب ، فمدح سلطانهم علي بن يوسف بن تاشفين ووزراءه وعلى رأسهم صديقه ابن عائشة فكانت تُغْدَق عليه الأموال والهبات من كل جانب ، وكان يعود بها إلى بلدته ، فيُنْفقها في مُتَعه ومسراته . ويقال إنه كَفَّ عن صَبْوته بأخَرَة وإنه كان يخرج من جزيرته ويسير بين الوديان والجبال وينادي بأعلى صوته : يا إبراهيم تموت ، فيجيبه الصَّدى ويخر مغشيًّا عليه . وأخيراً يلبي نداء ربه سنة ٥٣٣ عن اثنين وثمانين عاماً .

وكان الأندلسيون يعجبون به وبشعره حتى ليرفعونه إلى الأفق الأعلى ، يقول ابن بسام : « الناظم المطبوع ، الذي شهد بتقديمه الجميع ، المتصرف بين أشتات البديع » ويقول الفتح في القلائد : « ما لك أعنة المحاسن وناهج طريقها ، العارف بترصيعها وتنميقها ، الناظم لعقودها ، الراقم لبُرودها » ويقول الحجاري في المُسْهب :

---

(١) انظر في ترجمته الذخيرة (النسخة المخطوطة بمكتبة الجامعة) المجلد الثالث الورقة ٨٧ وما بعدها والفتح في القلائد ص ٢٣١ وابن الأبار في التكملة (البقية المطبوعة في الجزائر) ص ١٧٥ ووفيات الأعيان لابن خلكان والمغرب لابن سعيد ٢/٣٦٧ والمطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية (طبعة وزارة التربية والتعليم) ص ١١١ ومعجم الصدفي ص ٥٩ ونفح الطيب للمقري (طبعة أوربا) ٢/٣٢٨ .

« هو اليوم شاعر هذه الجزيرة ، لا أعرف فيها شرقاً ولا غرباً نظيره [١] » .

وأكثر ديوانه يدور فى المديح ، وهو يجرى فيه على سُنَّة الشعراء من قبله ، وقلما أضاف فيه جديداً إلا بعض مبالغات مفرطة ، ولا نراه يخلطه بمعان إنسانية وحكم وأمثال على طريقة المتنبى ، وربما كان ذلك راجعاً إلى أنه لم يمرّ به طيف من الحزن والتشاؤم ، فحياته تمضى هنيئة سعيدة . ونراه يقول فى مقدمة ديوانه إنه كان ينهج فى شعره نهج الشريف الرضىّ ومهيار وعبد المحسن الصُّورى . وقد طبع شعره فى التشبيب بطوابع الأوَّليْن فأكثر فيه من ذكر الطيف والخيال والظعائن والعيس والأماكن الحجازية والنجدية ونسيم الصبا وأنفاس الخُزامى . وربما كان ذكره لعبد المحسن الصُّورى إشارةً إلى تشبهه بشعراء الشام فى وصف الطبيعة ، وكان يعجب بألوان البديع وهو يقترب فى ذلك من ذوق أصحاب التصنيع أمثال أبى تمام .

وأهم موضوع عُنى به وصف الطبيعة ، إذ كان « مغْرًى بوصف الأنهار والأزهار وما يتعلق بها . ولعل أهم ما يلاحَظ على فنه أنه كان يُعْنَىَ بالتشخيص للطبيعة والتصوير لمباهجها ، وهو ليس تصويراً جديداً ، فمن قبله كان العباسيون أمثال أبى تمام وابن الرومى وابن المعتز وغيرهم يصورون هذه المباهج تصويراً لايقل عن تصوير ابن خفاجة . وقد لا نعدو الحق إذا قلنا إن كل ما له فى هذا الجانب إنما هو الكثرة ، أما فيما عدا ذلك فليس له جديد . وحتى لون التشخيص الذى اتخذه فى تصوير الطبيعة استعاره استعارة من أبى تمام وتلامذته . وإن الإنسان ليلاحظ جملة أن ذوق ابن خفاجة كان قريباً من ذوق المصنِّعين فى المشرق إذ يكثر من ألوان التصنيع ، من تشخيص وجناس وطباق وما يندمج فى ذلك من صور وأخيلة . وكان يقف عند هذه الألوان الحسية فى التصنيع التى سبق أن عرضنا لها عند أبى تمام ، أما الألوان العقلية فلم يكن يُعْنَىَ بها أو بعبارة أدق لم يكن يفهمها . على كل حال انحاز ابن خفاجة إلى جانب الألوان الحسية فى التصنيع ، وأظهر فيها مهارة واسعة إذ كان يمزج

(١) المغرب ٢/٣٦٧ .

بينها مزجاً طريفاً ، وانظرْ إليه يصف سراه بالليل :

بِعَيْشِكَ هل تَدْرِى أهُوجُ الجَنائبِ ... تَخُبُّ بِرَحْلِى أم ظهورُ النَّجائبِ
فما لُحْتُ فى أولى المَشارقِ كوكباً ... فأشْرَقْتُ حتى جئتُ أُخْرَى المغاربِ
وَحِيداً تَهادَانى الفيافى فأجْتَلِى ... وُجُوهَ المَنايَا فى قِناعِ الْغَيَاهبِ
ولا جَارَ إلا مِنْ حُسامٍ مُصَمَّمٍ ... ولا دارَ إلا فى قُتُودِ الركائبِ
ولا أُنْسَ إلا أنْ أضاحِكَ ساعةً ... ثُغُورَ الأمانى فى وجوهِ المطالبِ
ولَيْلٍ إذا ما قلتُ قد بادَ فانْقَضَى ... تَكَشَّفَ عنْ وَعْدٍ من الظَّنِّ كاذبِ
سَحَبْتُ الدَّياجى فيه سُودَ ذوائبٍ ... لأعتنقَ الآمالَ بيضَ تَرائبِ

فَخَرَّقْتُ جَيْبَ اللَّيلِ عن شخصِ أطْلَسٍ
تَطَلَّعَ وضَّاحَ المضاحِكِ قاطِبِ

فإن أبصارنا تغرق فى هذه الكثرة من المناظر والصور ، وهى كثرة قد تعب ابن خفاجة فى توفيرها حتى يحاكى بها أبا تمام وغيره من شعراء الطبيعة فى المشرق ، وارجع إلى البيت الأخير فإنك تراه يعبر عن غبش الفجر الذى تختلط فيه أشعة النهار بظلام الليل بهذا الشخص المتنافر فى الصورة ، فهو يضحك ويقطِّب فى آن واحد ، وهى صورة طريفة .

والواقع أن ابن خفاجة كان يعنى بكثرة الصور فى شعره ، حتى لتكاد بعض أبياته أن لاتُفهِمَ من كثرة ما يودع فيها من أخيلة واستعارات ، ولعل ذلك ما جعل ابن خلدون يقول عنه : «كان شيوخنا رحمهم الله يعيبون شعر أبى بكر ابن خفاجة شاعر شرقى الأندلس لكثرة معانيه وازدحامها فى البيت الواحد»(١) وكَنَى ابن خلدون عن ابن خفاجة بأبى بكر وكنيته المشهورة أبو إسحق ، ويظهر أن ذلك سهو منه ، فلسنا نعرف شاعراً مشهوراً بشرقى الأندلس يسمى ابن خفاجة غير صاحبنا . فأما ازدحام المعانى فيقصد به — كما قلنا — ازدحام الصور فى شعره . على أنه لم يكن يكتفى بالصور بل كان يضيف إليها الألوان الأخرى من الجناس والطباق ، وكان ما يزال يُعْنَى فى شعره أن يكون فياضاً

(١) المقدمة طبع بولاق ص ٥٧١ .

بالشعور ، وقد أحال الطبيعة من حوله إلى صور ووجوه ناطقة ، واقرأ له هذا الوصف للجبل الذى اعترضه فى سُراه فتحدث عن لسانه قائلاً :

وأرعنَ طمّاح الذؤابة باذخٍ ... يُطاول أعنان السماء بغاربِ(١)
وقورٍ على ظهر الفلاة كأنه ... طوالَ الليالى مُفكرٌ فى العواقب
يلوثُ عليه الغَيْمُ سودَ عمائمٍ ... لها من وميض البرقِ حُمرُ ذوائب(٢)
أصختُ إليه وهْو أخرس صامتٌ ... فحدّثنى ليلَ السُّرَى بالعجائب
وقال : إلى كم كنت ملجأ قاتلٍ ... وموطنَ أوّاهٍ تبتّل تائب(٣)
وكم مرَّ بى من مُدْلجٍ ومؤوِّبٍ ... وقال بظلىٍّ من مطىٍّ وراكب(٤)
فما كان إلا أن طوتهم يدُ الرَّدَى ... وطاحتْ بهم ريح النَّوَى والنوائب
فما نَحْفقُ أيْكى غيرُ رَجْفة أضلعٍ ... ولا نَوْحُ وُرْقى غير صرخة نادبِ(٥)
وما غيّض السلوانُ دمعى وإنما ... نزفتُ دموعى فى فراق الصواحب
فحتى متى أبقى ويظعن صاحبٌ ... أودّع منه رائحاً غير آيبِ

ومن يقرأ هذه القطعة يعجب بابن خفاجة ومقدرته على تشخيص عناصر الطبيعة ، ولكن لا تظن أنه أول من ألمّ بالجبل على هذا النحو ، فحدّثه ذلك الحديث ، فإن من يرجع إلى ترجمة مجنون ليلى فى الأغانى يجد فيها الأصل الذى بنَى عليه ابن خفاجة مقطوعته ، فقد حدّثوا أن المجنون مرَّ بجبل التَّوْباد ، فأجهش بالبكاء ، وراح يقول(٦) :

وأجهشتُ للتَّوْباد حين رأيتهُ ... وكبَّر للرحمن حين رآنى
وأذْرَيْتُ دمْعَ العينِ لما عرفته ... ونادى بأعلى صوته فدعانى
فقلت له : أين الذين عهدتهم ... حواليك فى خِصْب وطيبِ زمانِ

---

(١) الأرعن : الجبل الشامخ ، والغارب : الكاهل .
(٢) يلوث : يلف ، والذوائب هنا : أعالى العمامة .
(٣) الأواه : العابد .
(٤) المدلج : السائر فى الليل ومثله المؤوب وقال : استراح وقت القيلولة .
(٥) الأيك : الشجر المتكاثف ، والورق : جمع ورقاء وهى الحمامة .
(٦) أغانى (طبعة دار الكتب) ٢/٥٣ .

فقال : مضوا واستودعونى بلادهم ومن ذا الذى يبقى على الحدثانِ
وإنى لأبكى اليوم من حذرى غداً فراقَك والحيَّان مجتمعانِ

ومن غير شك استمد ابن خفاجة من هذه المقطوعة منظومته فى الجبل، مضيفا إليها من خياله ما يكمل به الصورة من تفاصيل ودقائق جديدة ، فقد أعطانا أولا هيئة الجبل ، وصوّره لنا وقوراً لاث عمامته وهو يطوى الليالى مفكراً فى العواقب ، ثم أخذ يفصل الحديث عمن يمرون به من مجرمين وتقاة صالحين . وصوره حزيناً لفراق أصحابه ملتاعاً لوحدته من دونهم . ولعل فى هذا كله ما يصور لنا جهد ابن خفاجة فى إعادة الصور القديمة ، وكثيراً ما نقع عنده على صور بديعة كقوله :

لقد خلعتْ ليلا علينا يَدُ الهوى رِدَاءَ عِناقٍ مزَّقَتْه يَدُ الفجرِ

وقوله فى غُرَّة فرس أشقر :

يُطْلع للغُرَّة فى شُقْرةٍ حبابةً تضحك فى كاسِ

فهو يستمد من القديم حقًّا ، ولكننا من حين إلى حين نقع عنده على أخيلة طريفة . وكان ذوقه أقرب ما يكون إلى ذوق المصنّعين وما أشاعه أبو تمام من تشخيص عناصر الطبيعة ، ومع ذلك كان يتصنع فى أطراف كثيرة من شعره، ولعل خير ما يصور ذلك عنده ما شُغف به من نقل أوصاف الطبيعة إلى موضوعات شعره الأخرى ، فكما كان المتنبى ينقل أوصاف الغزل إلى الحرب كان ابن خفاجة ينقل أوصاف الطبيعة إلى الأبواب المختلفة كأن يصف ثناء ممدوحه بأنه رَطْب إذ يقول :

تَشِيمُ بِصَفْحَتَيْهِ بُرُوقَ بِشْرٍ تُعِيد بشاشةَ الرَّوْضِ الجديدِ

وهو يتصنع لذلك فى الرثاء كأن يقول :

فى كُلِّ نادٍ منكَ رَوْضُ ثَنَاءٍ وبكل خَدٍّ فيكَ جدْوَلُ ماءِ
ولكلِّ شَخْصٍ هِزَّةُ الغُصْنِ النَّدِى غِبَّ البُكاء ورَنَّةُ المُكَّاءِ

أرأيت إلى هذا التصنع ؟ ! لقد جعل ابن خفاجة الدموعَ السائلة على الخدود

كأنها جداول ماء ، كما شبه اضطراب الباكين وانسكاب دموعهم بهزة الغصن الذى غمرته أمطار السماء . ولم يكتف بذلك ، بل راح يشبه أنينهم بصوت قُبَّرَةٍ تصفر وتصيح. وانظر كيف تصنَّع وكيف بالغ فى تصنعه ، حتى اجتمعت له هذه الصور والخيالات ، التى تتجمع حقًّا فى الطبيعة ، ولكن لا يمكن للحس الطبيعى أن يجمعها فى رثاء . وعلى هذا النمط كان ابن خفاجة يجمع بين التصنيع والتصنع فى شعره ، وإننا لنحس إزاءه ما أحسسناه عند سابقيه : ابن برد وابن زيدون من ضَرْب خواطره وأفكاره وصوره على النماذج المشرقية ، ولاحظ ذلك ابن بسام فى الذخيرة ، فقرنه إلى الشعراء العباسيين ، واستخرج طرفاً من أبياته وأشعاره التى نقلها عنهم نقلاً كقوله :

يا بَدْرَ تِمٍّ زَارَنى منه الهلال وقد تَلَثَّمْ

فقد أخذه لفظًا ومعنى من قول الشريف الرضى :

تلثَّمَ مُرْتَابًا بفضْلِ ردائِهِ فقلت هلالٌ بعد بدرِ تمـامِ

ومن ذلك أيضًا قوله :

كأننى بعـدكم شمالٌ قد فارقتْ منـكمُ يمينا

وقد أخذه بلفظه ومعناه من قول ابن المعتز :

وإنى وإياك مثـل اليـدين ولكن لك الفضلُ أنت اليمينُ

ونحن لانريد أن نطيل بمثل هذه الأمثلة ، إنما نريد أن نكثر من ذكر الأدلة على صحة ما نقوله من أن شعراء الأندلس لم يحاولوا الثورة على الأوضاع والأنماط العباسية فقد انساقوا يقلدون العباسيين ويحاكونهم ، ولم يفكر أحد منهم فى الخروج على هذا التقليد وتلك المحاكاة .

ونحن نتساءل هل رأينا حتى الآن شيئاً جديداً فى الأندلس ؛ إن الشعراء الأندلسيين لم يستطيعوا أن يحدثوا فى عصر ملوك الطوائف وما تلاه من عصور إلى سقوط غرناطة اتجاهاً جديداً فى الشعر العربى يمكن أن نسميه مذهباً ، وهل عندهم إلا التقليد والاطراد مع الأفكار والصور السابقة ، وكأنى بالحياة العربية

فى تلك العصـــور لم تعد حياة نشيطة ، وكأنما أصابها شىء من العطل ، فلم تعد تتعاقب فيها مذاهب فنية ، بل تجمدت عند المذاهب القديمة ، وكل ما يصنعه الشعراء أنهم يقلدونها على تلك الصورة المختلطة التى رأيناها ، فهم ينقلون النماذج العباسية ويحاكونها بدون أن يعرفوا شيئاً عن تاريخها وما بينها من فواصل .

٥

الغناء الأندلسى والموشحات والأزجال

لم يستطع شعراء الأندلس أن يحدثوا مذهباً فنيًّا جديداً فى الشعر العربى ، فقد جمدوا غالباً عند التقليد والصَّوْغ على نماذج المشرق ، وحقًّا أن الأندلس عاشت فى ترف أحدث عندها اهتماماً بشعر الطبيعة ، كما أحدث عندها نهضة واسعة فى الغناء وما يَنْطَوى من الموشحات والأزجال ، غير أن صنيعهم فى هذه الجوانب اقتصر على الشكل ، ولم يتجاوزه إلى الصياغة العقلية والشعورية ، فكل ما لهم فى شعر الطبيعة إنما هو الكثرة ، أما أفكارهم وأما طرقهم فى الوصف ومناهجهم فكل ذلك يستعيرونه من المشرق استعارة وينقلونه نقلاً ، وحتى ما نجده عندهم أحياناً من التشخيص وبعث الشعور فى الطبيعة قد تأثروا فيه العباسيين من أمثال أبى تمام وابن الرومى . ولعل الغناء وما تبعه من موشحات وأزجال هو الجانب الطريف فى دراسة الشعر الأندلسى فقد سارعت الأندلس إلى العناية بالآداب الشعبية ، ولكن ينبغى أيضاً أن لا نبالغ فى ذلك ؛ فإن هذه العناية لم تُحْدث كما نقول تغييراً فى صياغة التفكير الفنى عند الأندلسيين ؛ إنما كل ما هناك أنهم يتخلصون من التقيد بالوزن ، كما يتخلصون من التقيد بالقافية الواحدة وهذا كل ما عندهم من تجديد وهو تجديد شكلى اضطرّتهم إليه ظروف الغناء ، وحقًّا هم قد جددوا كثيراً فى الأوزان ، ولكنا عرفنا فى غير هذا الموضع أنهم سُبقوا بذلك ، سبقهم العباسيون إذ أوشكوا أن يغيروا صورة « الرُّقُم الموسيقية » القديمة تغييراً تامًّا ، وإذن لا يبقى للأندلسيين فى موشحاتهم سوى التجديد فى القافية ، وهو

ضرب من الحرية فى صناعة المقطوعة أوجدته ظروفُ إنشادِ المُغَنِّين مع الجوقات للشعر . ونحن لا يمكن أن نعتدَّ بهذا الجانب كمذهب جديد فى الشعر العربى ، إلا إذا كنا ممن يؤمنون بالشكليات ويتخذونها أصولاً للمذاهب الفنية .

والحق أن شخصية الأندلس فى الشعر العربى لم تكن قوية ، ومع ذلك فإنها استطاعت أن تُحْدث شيئاً جديداً فى الشعر إلى حد ما يتجاوب مع بيئتها وما كان فيها من ترف ولذة ونعيم ، وهو هذه الموشحات والأزجال التى تعبِّر عن موجة واسعة من الغناء والموسيقى ، وقد نشأتْ هذه الموجة مع زرياب وغيره من مغنى المشرق [١] ومغنياته من أمثال فضل وعلم وقلم وقمر والعجفاء [٢]. فشاع الغناء وشاعت الموسيقى وكثر المغنون والمغنيات وظهرت الجوقات المختلفة ، واتصل ذلك كله بالشعب وأعياده ، بل يظهر أنه اتصل بحياته دائماً فى عيد وغير عيد ، حتى لنجد التجيبى يقول . « كنت بمدينة مالقة من بلاد الأندلس سنة ست وأربعمائة ، فاعتللت بها مديدة انقطعت فيها عن التصرف ولزمت المنزل ، وكان يمرِّضنى حينئذ رفيقان كانا معى ، يلُمَّان من شعثى ويَرْفقان بى ، وكنت إذا جنَّ الليل اشتد سهرى وخفقتْ حولى أوتار العيدان والطنابير والمعازف من كل ناحية ، واختلطت الأصوات بالغناء فكان ذلك شديداً علىَّ ، وزائداً فى قلقى وتألمى ، فكانت نفسى تعاف تلك الضروب طبعاً وتكره تلك الأصوات جبلَّةً وأود لو أجد مَسْكناً لا أسمع فيه شيئاً من ذلك ويتعذر علىَّ وجوده لغلبة ذلك الشأن على أهل تلك الناحية وكثرته عندهم [٣] » ، ويستمر التجيبى فيصف لنا حفلاً غنائياً رآه فى بستان لدار كبيرة ، وقد اصطفَّ شَرْب ونحو من عشرين رجلاً وبين أيديهم شراب وفاكهة وجوارٍ قيام بعيدان وطنابير وآلات لهو ومزامير وجارية جالسة تضرب على عودها .

وتحت تأثير هذه الموجة العنيفة من الغناء والموسيقى والجوقات وبتأثيرات مختلفة من البيئة المحلية ازدهرت الموشحات ، « وكان المخترع لها مقدَّم بن مُعافى القَبْرى

---

(١) نفح الطيب ٢/٨٥٣ .
(٢) نفح الطيب ٢/٧٥٨ .
(٣) المختار من شعر بشار وشرحه للتجيبى ص ١٠ .

من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المروانى ، وأخذ عنه ذلك ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد ، ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر ، وكسدت موشحاتهما ، فكان أول من برع فى هذا الشأن بعدهما عبادة القزّاز شاعر المعتصم بن صُمادح صاحب المريّة ، وقد ذكر الأعلم البطليوسى أنه سمع أبا بكر بن زهر يقول : كل الوشاحين عيالٌ على عبادة القزّاز فيما اتفق له من قوله :

بَدْرُ تمّ شمسُ ضُحَى غُصْنُ نَقَا مِسْكُ شَمّ
ما أتمّ ما أوْضَحا ما أوْرَقا ما أنَم
لا جرمْ من لحا قد عشِقا قدحُرِمْ»[1]

وذكر ابن بسام أن الموشحات القديمة كان أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة وأنهم كانوا يبنونها على مركز من اللفظ العامى والعجمى . ولعل فى هذا ما يشير فى صراحة إلى أن الموشحات فن أندلسى محلى وإن كنا لانؤمن بأنها نشأت من المزاوجة بين الشعر العربى وضروب من الأغانى الشعبية الأندلسية ، كما يذهب إلى ذلك بعض الباحثين من المستشرقين ، إنما نؤمن بأنها تطور تمّ هناك للمسمطات والمخمسات التى عرفت منذ العصر العباسى الأول . ويقول ابن بسام أيضاً : إن الموشحات القديمة لم يكن فيها تضمين ولا أغصان ، فلما جاء الرمادى أكثر من التضمين فى المراكز ثم جاء عبادة بن ماء السماء فاعتمد مواقع الوقف فى الأغصان يضمنها [2] . وإذن فالأغصان وأوقافها وتضمين مواقع الأوقاف كل ذلك قد عُرف عند عبادة بن ماء السماء كما عرفت المراكز من قبله ، وكأنى به هو الذى انتهى بالموشحات إلى صورتها الأخيرة . واشتهر من بعده فى عصر ملوك الطوائف ابن أرفع رأسه شاعر المأمون بن ذى النون صاحب طُلَيْطلة ، ثم جاءت الحلبة التى كانت فى مدة الملثّمين ، وأشهرهم التُّطيلى صاحب الموشحة المشهورة :

ضاحكٌ عن جمانْ سافرٌ عن بدر ضاق عنه الزمانْ وحواهُ صدرى
آه مما أجدْ شفّنى ما أجدْ

---

(١) مقدمة ابن خلدون (طبع المطبعة البهية) ص ٤٣٦ .
(٢) الذخيرة لابن بسام ٢/٢ .

قام بى وقعـــد باطـــشٌ متئـــد
كلمـــا قلت قد قال لى أين قـــد

وتتكرر هذه الصورة عادة فى الموشحة خمس مرات أو سبعاً . ومهما يكن فقد انتشر الغناء وانتشرت معه هذه الموشحات وأجاد الشعراء فيها إجادة بالغة ، واستمر ذلك فى دولة الموحدين واشتهر فيها ابن زُهْر صاحب الموشحة التى تنسب إلى ابن المعتز ؛ وقد عرضنا لها فى غير هذا الموضع . وما زالت الأندلس تُعْنى بهذه الموشحات حتى العصور المتأخرة إذ نجد ابن سهل صاحب الموشحة المشهورة :

هل درى ظَبْيُ الحمى أن قد حَمَى قلبَ صبٍّ حلَّه عن مَكْنِسِ
فهْـــو فى نارٍ وخفْـــقٍ مثلما لعبـــتْ ريـــحُ الصَّبا بالقَبَسِ

وقد نسَج على منواله لسان الدين بن الخطيب فى موشحته المعروفة :

جادكَ الغَيْثُ إذا الغيثُ هَمَى يا زمـــانَ الوصْلِ بالأندلسِ
لم يكـــن وصلُك إلا حُلُمًا فى الكرى أو خلسةَ المختلسِ

وكان يعاصره ابن زمرك ، وهو يشتهر بوصفه الصباح فى موشحاته حتى لتكوّن عنده الصُّبْحيات مجموعة طريفة من الموشحات ، ومن قوله فى مطلع إحداها :

كُحْـــلُ الـــدُّجَى يجـــرى من مُقْلَةِ الفجر على الصبـــاحْ

وعمّت هذه الموشحات وانتشرت من المغرب إلى المشرق ، ولكنها كما قلنا لم تحدث مذهباً جديداً فى الشعر العربى ، لأنها لم تغير فى دلالته وصياغته العقلية والشعورية ؛ إنما وقفت عند الصياغة الموسيقية . على أن النقاد لم يهتموا بها لخروجها عن أعاريض شعر العرب [1] ، وكأن هذا الجانب هو كل ما لفتهم فيها من تجديد .

« ولما شاع فن التوشيح فى أهل الأندلس وأخذ به الجمهور لسلامته وتنميق كلامه وتصريع أجزائه نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ، ونظموا على

(١) الذخيرة ٢/١ .

طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيه إعراباً واستحدثوا فنًّا سموه بالزجل ، التزموا النظم فيه على مناحيهم إلى هذا العهد ، فجاءوا فيه بالغرائب ، واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة . وأول من أبدع فى هذه الطريقة الزجلية أبو بكر بن قُزْمان ، وإن كانت قيلت قبله بالأندلس لكن لم تظهر حُلاها ولا انسبكت معانيها ولا اشتهرت رشاقتها إلا فى زمانه . وكان لعهد الملثمين (توفى عام ٥٥٥ هـ) قال ابن سعيد : رأيت أزجاله مرويَّة ببغداد أكثر مما رأيتها بحواضر المغرب [١] » . وينبغى أن نلقى كلام ابن خلدون فى نشأة الزجل ونأخر هذه النشأة عن نشأة فن التوشيح بشىء من الحذر : فقد رأينا الموشح نفسه يُبْنَى فى أول أمره — كما يقول ابن بسام — على بعض الكلمات الأعجمية . فالمعقول أن يكون الزجل قد نشأ معه مباشرة ، وربما سبقه . ويمكن أن نقول إنهما جميعاً فن واحد ذو شعبتين ، شعبة تغلب عليها الفصاحة ، وشعبة تغلب عليها العجمة . وذكر ابن قزمان فى مقدمة ديوانه أن أشهر من سبقوه أخطل بن نمارة ، وهو يبدأ مقدمته بقوله : « ولما اتسع فى طريق الزجل باعى وانقادت لغريبه طباعى ، وصارت الأئمة فيه خَوَلى وأتباعى وحصلت منه على مقدار لم يحصِّله معى زجال ، وقويت فيه قوة نقلتْها الرجال عن الرجال ، عند ما أبنت أصوله ، وتبينت منه فصوله . وصعبت على الأغلف الطبع وصوله ، وصفَّيته عن العقد التى تشينه ، وسهلته حتى لان ملمسه ورقّ خشينه ، وعرَّيته من الإعراب . . . والاصطلاحات تجريد السيف عن القِراب » . ونرى ابن قزمان يتلوَّم بعد ذلك الزجالين الذين سبقوه لما عندهم من « معان باردة وأغراض شاردة ، وألفاظ شياطينها غير ماردة » ثم لما عندهم من « إعراب هو أقبح ما يكون فى الزجل ، وأثقل من إقبال الأجل [٢] » وكأن الزجل فى نشأته كان أقرب إلى الموشحة منه إلى الصورة العامية الخالصة التى انتهى إليها عند ابن قزمان . وانتقل هذا الزجل — كما انتقلت الموشحات — إلى المشرق

---

(١) مقدمة ابن خلدون (طبع المطبعة البهية) ص ٤٤١ .

(٢) انظر مقدمة ديوان ابن قزمان (مصورة بمكتبة جامعة القاهرة .

واستخدمته الأقاليم فى آدابها الشعبية .

والحق أن الموشحات والأزجال جميعاً لم تحدثا ثورة واسعة على الأوضاع القديمة فى الصياغة الفنية للشعر الفصيح ، وربما كان ذلك يرجع فى بعض أسبابه إلى أن الأندلس لم تعرف التفكير العميق الدقيق ، أو على الأقل لم يعرفه شعراؤها ، ولذلك استمروا عند المحاكاة والتقليد ، ولعله من أجل ذلك كنت لا تجد عندهم كتاباً قيماً يعرض لشاعر بتحليل فنه وبيان منهجه ، وأنت أيضاً قلما وجدت عندهم شاعراً متفلسفاً يتخذ له منهجاً واضحاً فى عمله ، إنما هم ينقلون ويلفقون لا عن انتخاب بل كما يقع لهم ، وكما يعلمهم أساتذتهم من المشارقة ، وقد أخذوا يصنعون بالموشحات والأزجال ما صنعوه بقصائدهم من الخلط فيها بين صياغات مذاهب الصنعة والتصنيع والتصنع ، وظلوا يستمدون فى دلالاتها وصياغاتها من معين المشرق ومذاهبه الفنية .